مغامرات

أرسين لوبين

أهل الكهف

أهـــل الكهـف

بطلها اللص الظريف

أرســين لوبــين

للكاتب الفرنسي الكبير

موريس لبــلان

رواية بوليسية حافلة بأروع المفاجآت

الفصل الأول

فى حركة فجائية وثب السرجنت ماردیت عن دراجته واطفأ مصباحها الكهربائى وانهالت اللعنات والشتائم من فمه كالسيل متدفقة جائحة .. شأن الرجل الذى حذق هذا الفن ونبغ فيه ! راح يسب حظه فى مرارة .. حظه العثر المنكود وكانت الليلة مظلمة حالكة السواد وبلغ من تكاثف الظلام أنه لم يستطع أن يتبين قصر هايفيلد ومع ذلك فقد كان موقنا من أن هذا البناء الكبير القائم على كثب منه لا يمكن الا أن يكون قصر هايفيلد .. فهو بهذه المنطقة خبير عليم .!

ومنذ لحظات رأى فى احدى نوافذ القصر وميضا .. ما أن تلألأ حتى خبا واختفى . ولم يكن فى ظواهر الامور ما يثير الريب والشكوك ، ولكن ماردیث كان يعلم أن الظواهر فى الأغلب مضللة ..

ان السرجنت ماردیت لم يكن يجهل أن رب هذا القصر الكولونيل جون بريدج قد رحل منذ شهور وفى رفقته أسرته وخدمه .. رحلوا جميعا الى أسبانيا ينعمون بشمسها الدافئة ! .

فالبيت اذن خال لا يقيم فيه سوى حارسه جورج اسباركس ، بل ان اسباركس نفسه متغيب الآن عن القصر .. انه فى هذه اللحظة بالذات جالس فى حانة

اليمامة على مسافة ميل من القصر يحتسى أقداح البيرة ، ولم يكن لدى السرجنت ماردیت أى شك من هذه الناحية ، فقد لقى اسباركس هناك وشاطره كأسا من الشراب .. ثم تركه فى الحانة ومضى مستقلا دراجته .. فهل طار اسباركس حتى استطاع أن يصل الى القصر قبله ؟ .

لم يكن ماردیت فى حاجة الى شىء من الذكاء لكى يدرك أن فى القصر زائرا ليليا غير مرغوب فيه .. ولا بد أن يكون لصا اغتنم فرصة غيبة أهل الدار ، فجاء يسطو على المكان ويجرده من كل نفائسه العالية .

ولقد سب ماردیت حظه العاثر لأنه كان فى هذه اللحظة وحده ! .

لو أن براون كان معه الآن كشأنه دائما - لتكاتفا وتعاونا .. ولاستطاعا أن يقبضا معا على هذا اللص .

ولم يكن الخوف من مواجهة اللص هو الذى أثار تردد ماردیت قبل أن ينتهى الى رأى حاسم .. فما كان بالجبان الرعديد الذى يرهب أمثال هذه المواقف ، ولكنه كان يخاف أن يشعر به اللص فيفر من الناحية الخلفية ومن السهل أن يفلت اللص اذا لم يحاصره رجلان !

ومضى السرجنت ماردیت يحملق فى الظلام الى ناحية القصر ولكنه لم يتبين شيئا .. لم يعد يرى الوميض ، ولم

يكن فى هذا شىء من الغرابة فما كان اللص ليستمر على ارسال هذا الوميض والا فضح وجوده .

وفجأة طاف بذهن ماردیت خاطر أشاع فى كيانه هزة شاملة .. هذا الطارق الليلى .. لا بد أن يكون أرسين لوبين . ! ان القصر عامر بالتحف واللوحات الفنية الرائعة .. ومن غير لوبين تجتذبه روائع الفن ؟ وفضلا عن هذا فقد نمى الى علم اسكوتلاند يارد أن لوبين شوهد فى تلك الأنحاء منذ أسابيع . !

آه . ! الا ليته يستطيع أن يقتنص لوبين . ! الا ليته يستطيع أن يظفر بهذا المجد العظيم . ؟ السرجنت ماردیت يقبض على أرسين لوبين . ! يا له من عنوان جميل تخرج به الصحف على الناس . ! ماردیت ولوبين . ! ماردیت السرجنت المنزوى فى احدى المناطق الريفية .. لوبين العظيم ، لوبين الذى لا ينال ، لوبين الذى دوخ شرطة فرنسا .. وشرطة انجلترا وشرطة امريكا .. وشرطة المانيا .. وشرطة العالم كله . !

عظيم جدا .! فرصة نادرة ..! قبض على أرسين لوبين الليلة وفى الغد اصبح مفتشا .. !

بهذا اخذ ماردیت يحدث نفسه وقد استخفه الطرب .. ولكن .. ولكن كيف السبيل الى هذا .. ؟ كيف يقبض على ارسين لوبين ؟ لا يجهل أحد أن لوبين يمتاز بقدرة فائقة

على الافلات ..! انه ذكى واسع الحيلة عظيم الدهاء .. وقد مضت سنوات بعد سنوات وهو يعبث بأمهر رجال الشرطة فيحاورهم ويداورهم ويعابثهم ويفلت منهم ! وكم من مرة ضيق عليه الشرطة الحصار والحوا عليه بالمطاردة ومع ذلك فقد استطاع أن يهرب كأنه شيطان ..! فهل يستطيع ماردیت أن يقبض عليه ..! وكيف يطمع فى هذا وقد أخفق من قبله رجال اسكوتلانديارد ومن هم أعظم شأنا من رجال اسكوتلانديارد ..؟

فترت همته .... وهبطت حماسته .. وشعر المسكين بمرارة موجعة لو أن هناك تليفونا قريبا لاستطاع أن يستنجد بنفر من زملائه ولا طبقوا على القصر واقتنصوه ولكن مما يؤسف له ان اقرب تليفون انما يقع فى حانة على مسافة ميلين ونصف ميل من القصر فلو انه مضى اليها لفرغ لوبين من شأنه فى خلال هذا الوقت ولانصرف الى داره آمنا مطمئنا دون أن يعترض سبيله أحد ... والمعروف عن لوبين انه جم النشاط سريع العمل لا يستغرق فى سطوه الا وقتا قصيرا جدا .

واخذت الدقائق تتابع والسرجنت ماردیت جامد فى مكانه يقلب الراى ..

لم يكن هناك الا حل واحد . هو أن يدخل البيت بمفرده ويفاجأ لوبين .. فهل ينجح ياترى .. ؟

لو انه اقدم على ذلك لافلت لوبين من الناحية الاخرى ولكن ما العمل .. ؟ تلك هى الوسيلة الوحيدة ..!

وحمل ماردیت دراجته ليخفيها فى الخندق الممتد على طول الطريق حين سمع دوى سيارة مقبلة .. وطاف بذهنه خاطر فجائى .

ارتد ماردیت الى الطريق مسرعا ووقف فى مكان لا يرى وهو فيه من نوافذ القصر . وبعد لحظات تراءت السيارة ومصابيحها القوية تبدد ظلمات الطريق . خرج ماردیت الى قارعة الطريق ولوح بذراعه يأمر السيارة بالوقوف . وخففت السيارة من سرعتها ثم وقفت ... وبرز راس من نافذتها وقال : ماذا تريد .. ؟

فقال السرجنت ماردیت مجيبا :

انى ضابط بوليس . واريد مساعدة منك

فضحك صاحب السيارة وقال :

— مساعدة منى .. ؟ ماذا جرى .؟ هل اصيبت سيارتك بعطب ؟

— اريد منك ان تعود الى كليشورب لتاتى بعض رجال البوليس .. ولكن لا ... انتظر .!

وحدج ماردیت صاحب السيارة بنظرة فاحصة وقال :

— اسمع .. اتحب ان تشترك معى فى القبض على احد اللصوص فضحك الشاب والتمعت عيناه وقال :

— ليس احب الى من هذا .. اين هو ؟

واغتبط ماردیت بهذا الحليف الفجائى .. انه فيما يلوح قوى البنية وثيق التركيب موفور الشجاعة .. وهو ذكى ايضا .. وليس منظورا ان يفسد الامور .

وقال السرجنت ماردیت يشرح ما حدث :

— كنت الآن راجعا الى دارى فمررت ببيت خال يعرف باسم قصر هايفليد . فادهشنى ان ارى وميضا فى احدى نوافذ الطابق الاعلى .

فصفر صاحب السيارة وقال : شىء عجيب .. !

واسترسل الشرطى يقول :

— ولقد كان فى وسعى ان اهاجمه وحدى دون الاستعانة بأحد لولا انى اخشى ان يفر من الجهة الخلفية . هذا الى ان غريمنا معروف بالقدرة على الافلات من البوليس . ولهذا جئت انشد معونتك فتراقب انت الطابق الارضى بينما اصعد انا الى الطابق الاعلى لمهاجمته . وبذلك يستحيل عليه الفرار .

وادار صاحب السيارة سيارته الى ركن من الطريق واطفأ انوارها ونزل منها وهو يقول :

- انى رجلك الذى تستطيع أن تركن اليه .. انني ادعى يانج .. هربرت يانج .! وسأرى هذا اللص كيف يكون الصراع والنضال .! وابتسم الشرطى وقال :

- اننى السرجنت ماردیت من قوة البوليس السرى بالمقاطعة .. وارجو أن لا تغيب عنك دقة الموقف يا مستر يانج . وانك فى حاجة الى ذكائك ودهائك كله .! ان هذا اللص معروف للبوليس تماما .. وان كان لم يقبض عليه حتى الآن . انه يدعى أرسين لوبين .

فهز الشاب راسه وقال :

- أرسين لوبين .! ما سمعت بهذا الاسم من قبل .!

- هذا جائز فانه لص فرنسى ولم يهبط انجلترا الا منذ عهد قريب انى طبعا لست متأكدا من أن غويمنا هو ارسين لوبين ولكننى ارجح انه هو . فقد شوهد فى الاسابيع الاخيرة يحوم حول هذا المكان .. فهيا بنا يا سيدى . ان لى مقدرة على تمييز الاشباح فى الظلام فأرجوك ان لا تأتى صوتا من شأنه أن ينبه اللص الينا .

ثم أردف يقول :

- وهناك مسألة احب أن أذكرها لك . لقد اعتاد لوبين فى بعض مغامراته أن يرتدى ثيابا سوداء .

- ثيابا سوداء .؟

- نعم . انه يتشح بالسواد من اخمص اقدميه الى رأسه

القميص والياقة . ورباط العنق والقفاز . وبذلك تتعذر رؤيته فى الظلام فاذا ما سار حسبه المرء قطعة تتحرك فى الظلام ولم يفطن اليه البصر .

- يا له من داهية أريب ...!

- انه يا مستر يانج أدهى لص حملته هذه الارض .

ومشى ماردیت الى حيث كانت دراجته يتبعه مساعده . ونزع منها المصباح الكهربائى ليستعين به حين الحاجة . ثم تخطى سياج الحديقة فى خطوات خفيفة حذرة وعبر المرج حتى انتهى الى قصر هايفليد وقد بدا وتسامى فى الظلام .

وامسك السرجنت بذراع صاحب السيارة وهمس فى اذنه يقول :

- سنبحث أولا عن النافذة التى دخل منها اللص .

واسرع ماردیت الى اقرب نافذة اليه فالفاها موصدة . فانتقل الى سواها فكان لها شأن الاولى . فسار الى الثالثة فاذا بها كسابقتيها ...

كانت جميع نوافذ القصر موصدة لم تعبث بها يد ولم يقربها انسان ..

وحك ماردیت راسه مفكرا .

وهمس يانج فى اذنه يقول :

ـ الا يجوز أن تكون قد اخطأت .؟

فهز السرجنت رأسه وقال :

ـ لا أظن ذلك .. كلا .. لم أخطىء . لقد رأيت وميضا فى احدى نوافذ الطابق الاعلى .. هذا لا شك فيه .. من المحتمل أنه انصرف .

ـ واذا كان قد انصرف فكيف اغلق النافذة وراءه .؟

ـ نعم .؟ كيف اغلق النافذة .؟ لا بد أنه موجود اذن داخل القصر ! ولكن كيف استطاع الدخول ؟

فأومأ الشاب الى احدى الشرفات وقال :

ـ أليس من الجائز أن يكون قد تسلق الى هذه الشرفة ؟

فقال الشرطى فى حماسة :

ـ هذا جائز .. هذا جائز .. فالقضبان الحديدية تجعل الصعود الى الشرفة سهلا جدا .. انما بمثابة سلالم يتعلق بها المرء .

وأسرع الرجلان صوب القضبان الحديدية التى وضعت لكى تتسلقها النباتات .

وقال يانج :

ـ دعنى أصعد الى الشرفة .. انتى أخف منك وزنا وأصغر حجما فتردد ماردیت برهة قبل أن يأذن لصاحبه

السيارة فى الصعود .. ترى ماذا يقول رؤساءه لو انهم علموا انه تخلف وترك الشاب يصعد وحده الى الشرفة .؟

وكأنما ادرك الشاب ما يجول بخاطر الشرطى فقال :

ـ لا يزعجك أمرى .!

وفى اللحظة التالية كان قد تسلق القضبان وصعد الى الشرفة .

وبعد دقيقتين رجع ثانية الى السرجنت ماردیت وقال له:

ـ باب الشرفة مفتوح ، والتسلق سهل جدا فيمكنك أن تصعد أنت أيضا .

وفى غير تردد تسلق ماردیت القضبان الحديدية حتى استقر على الشرفة فألفى بابها مفتوح . ثم لحق به يانج

وتسلل الرجلان الى داخل البيت وهما أشد ما يكونان حرصا على أن لا يصدر عنهما صوت ينبه اللص . والصق ماردیت فمه بأذن يانج وهمس يقول :

ـ سأمضى خلفه أما أنت فتول حراسة باب الشرفة . واذا افلت منى سأصفر تنبيها لك .

فقال يانج وهو يبتسم :

ـ حسنا .. وثق أن ارسين لوبين لن يتجاوزنى ولا بخطوة واحدة .

وتوارى الشرطى فى أحشاء الظلام . وما لبث يانج أن سمع قلقلة الارضية الخشبية صادرة من الدهليز الخارجى.

ثم ضحك .! كانت ضحكة خافتة ولكنها صادرة من اعماق قلبه ! انها بلا ريب أجمل مغامرة اندمج فيها ! بل واجمل نكته .! لان هذا الشاب لم يكن يدعى يانج وانما كان يدعى أرسين لوبين .

نعم .. فقد شاءت الصدف أن يستعين السرجنت ماريديت بارسين لوبين على القبض على أرسين لوبين .!

وبعد أن ضحك لوبين ضحكة أو ضحكتين لم يشأ أن يضيع ولا دقيقة واحدة .. ان أمامه عملا ينبغى أن يفرغ منه .!

وفى حركة سريعة رفع لوبين الوشاح الابيض الذى يلف به عنقه ودسه فى جيبه . ثم نزع معطفه وقبعته ووضعها على مقعد قريب وأخرج من جيبه قفازا أسود دس فيه يديه كما أخرج قناعا أسود من جيب من جيوب حزام أدوات اللصوصية الذى يتمنطق به حول وسطه .

وحين ثبت لوبين القناع على وجهه والقفاز فى يديه . وحين انكشف منه قميص أسود عندما أزال الوشاح الابيض .. صار أشبه شيء بقطعة من الظلام .!

ثم سار فى نفس الطريق الذى سبقه اليه السرجنت ماريديت .

حقا انها ليلة عجيبة .. ليلة المصادفات . فأولا استوقفه ماريديت ليستعين به على القبض على لوبين مع انه هو نفسه لوبين .. وثانيا دعاه الى دخول قصر هايفيلد وقد كان فى نيته أن يسطو على هذا القصر وفى تلك الليلة بالذات .! صدق ماريديت حين قال أن لوبين شوهد يحوم حول هذا المكان فى الاسابيع الاخيرة .

لقد اعتزم أن يسلب القصر بعض كنوزه فكيف يسبقه اليها لص آخر ..؟ الا انها لجراة منقطعة النظير .. ! لقد اعتاد لوبين أن يعمل دون أن يقطع على منافس يزاحمه! فهل انقلبت الاية .؟ لابد له اذن أن ينتقم .!

البيت مظلم .. قطعة من الظلام .. ومع ذلك فان فيه فى هذه اللحظة ثلاثة أشخاص : شرطيان ولصين .!

ولم يكن لوبين ليجهل أن الموقف خطر دقيق .. خطر لا عليه وحده وانما على الثلاثة جميعا ..! كل منهم عدو لصاحبه .! وستكون معركة حامية اذا ما التقى منهم اثنان . فما بالك اذا ما التقى الثلاثة معا فى وقت واحد .! أن القصر لحقيق فى هذه اللحظة بأن ينقلب ساحة قتال .!

واتجه لوبين الى السلم دون أن يجرؤ على استعمال مصباحه الكهربائى وكان يصغى ويرهف السمع من لحظة لاخرى دون أن يسمع شيئا .. وادهشه الامر كثيرا ذ لم يكن يتوقع أن تكون لماريديت هذه القدرة على المشى

الخفيف .. وكان يسير دون أن يصدر عنه صوت .. كانت مهنته تقضى عليه بمثل هذا الحذر .. وفضلا عن ذلك فهو يلبس حذاء له نعل من اللباد .

واخيرا سمع صوتا .. صوتا خفيفا جدا .. قرقعة لوح من الخشب لا تكاد الاذن تدركها .. وربما كانت قرقعة طبيعية ناشئة عن تمدد الخشب من تلقاء ذاته .. وصدر الصوت من ورائه .. فاستدار على عجل ولكنه لم ير شيئا .. ترى ما سبب هذا الصوت وما مصدره .؟ أصدر من ماريديت ام من اللص .؟ أم عن لوح الخشب ذاته .؟

سؤال لم يكن يدرى له جوابا .

وتجاوز لوبين راس الدرج واتجه الى غرفة صغيرة تقع فى نهاية الدهليز .. فى هذه الغرفة يحتفظ رب القصر بدمية يابانية هى التى جاء لوبين يسعى اليها .. لم يكن يبتغيها لقيمتها — فانها لا تذكر الى جانب الاخطار التى يستهدف لها — وانما كان يبتغيها لجمالها الرائع .. لدقة صنعها الفنى .

وقف لوبين عند باب الغرفة برهف أذنيه .. كان يعتقد ان اللص لابد ان يكون فى هذه الغرفة .. والا فلأى غاية جاء يسطو على القصر ان هذه الغرفة تضم مجموعات نادرة من التحف والنفائس جمعها الكولونيل بريدج من جميع أنحاء العالم .

وللمرة الثانية خيل الى لوبين أنه سمع صوتا .. وكان الصوت صادرا من مسافة غير قريبة .. وخيل اليه أنه صوت باب يغلق . ولكنه لم يسمع أى صوت من داخل الغرفة .

وضع لوبين يده على مقبض الباب وادار فى رفق وحذر .. ثم دفعه فى حركة سريعة .. وفى اللحظة التالية أدرك أن الغرفة خالية ..!

عجبا ..! كان يتوقع أن يجد اللص فيها فكيف يجدها خالية ..؟ والى أية غرفة ذهب اللص ان لم يكن قد ذهب الى هذه الغرفة ..؟ كل شىء فيها على حاله كانما لم نمسها يد .. لا شك أن اللص يعمل الان فى جهة أخرى .. وابتسم لوبين ابتهاجا وقد تمنى أن يلتقى الرجلان ويتلاحما . فان هذه المعركة كفيلة بأن تشغلهما عنه وتصرفهما عن ملاحقته حتى يفرغ من شأنه .

ولم يكن لديه من الوقت ما يضيعه عبثا .. عليه أن يجد الدمية اليابانية التى جاء من أجلها .

أغلق لوبين الباب خلفه وأضاء مصباحه الكهربائى .. وكان مصباحا دقيقا يرسل خيطا رفيعا من النور يهديه الى الطريق دون أن يفضح وجوده . وسار لوبين الى دولاب فى صدر الغرفة فاغتصب قفله بأداة اخرجها من المنطقة الى الدولاب ورأى الصندوق الذى فيه الدمية فأخذها .

ثم أغلق الدولاب وخرج الى الدهليز ثانية . ولم يسمع اى صوت يثير الشبهات .. ترى اين هذا اللص الثانى .؟ انه ليس موجودا فى الغالب فى الطابق الاول فهل هبط الى الطابق الارضي .؟

سار لوبين فى الدهليز . وفجأة اصطدم بجسم لين طرى وفى اللحظة التالية كان لوبين يتدحرج على الارض وقد التحم مع شخص مجهول .

ترى من يكون هذا الشخص .. ؟ أهو الشرطى ام اللص .. ؟

لم يتسع الوقت أمام لوبين للتفكير فقد شعر بضربة عنيفة تصيب فكه .. ثم اعقبتها ضربة اخرى استقرت على خده الايسر . وكانت اللكمات تنهال بسرعة البرق . ولم يكن أمام لوبين الا ان يتفادى هذه اللكمات الشديدة التى تنانه من كل ناحية دون أن يجد وسيلة يرد بها اللكمات الى خصمه القوى .

واشتدت الملحمة .. وكان لوبين جبارا قوى العضلات مفتول الساعدين . وكانت له خبرة بأساليب النضال . ولكن خصمه ايضا كان على غراره . قويا يحذق طرق النزال ..! هذا الى أن خصمه كان أثقل منه وزنا بكثير وأعظم جرما . وعلى الرغم من صلابة لوبين ادرك فى النهاية ان لكماته ضائعة لا تفضى الى نتيجتها المرتفعة .

وترددت أصوات نضالهما فى الدهليز .. لكمات تتلوها لكمات : وآهات محتبسة مكتومة .. وزفير وشهيق .

وجعل الخصمان يترنحان .. ويتقدمان أماما ثم يرتدان خلفا .. ويباعدا برهة ثم انقض كل منهما على صاحبه . وسمع صوت زجاج يتهشم ثم صوت عنيفة كأنما هوى دولاب الى الارض .

وتقدم لوبين ثانية وسدد لكمة قوية أراد منها أن تكون فصل الخطاب .. ولكن اللكمة طاشت ولم تصب الا الهواء وسدد لوبين لكمة اخرى بيده اليسرى .. وأصابت يده الهدف .. وشعر بأسنان تنغرز فى أصابعه .. فأسرع وسدد لكمة ثانية بيده اليمنى الى نقطة يعتقد انها لا بد أن تكون وجه غريمه . ولكنه أخطأ التقدير فيما يلوح . فترنح واختل توازنه ومال الى الامام .. وفى هذه اللحظة أصابت فكه لكمة هائلة .. وفى هذه المرة ترنح لوبين الى الخلف .. وأعقبت اللكمة الاولى لكمة ثانية . نالت فكه أيضا .. وكانت اللكمة من العنف بحيث ردته الى الخلف مترنحا كالنمل .. وظل لوبين فى تراجعه حتى اصطدم بالجدار .. وشعر بأن شيئا خلفه قد انهار .

ثم أخذ يسقط .. أخذ يهوى ، الى الاسفل الى الاسفل ..!

وفجأة اصطدم بجسم صلب صدمة عنيفة .

وأعقب الاصطدام الاغماء ..!

الفصل الثانى

أستعاد ارسين لوبين رشده فى بطء وفى ألم .. ومرت فترة وهو لازال مغمض العينين لا يفتحهما اذ لم يخطر له أن يفعل هذا .. لم يكن يفكر الا فى شىء واحد .. فى ذلك الالم الشديد الذى شمل بدنه كله .. ألم طاغ .. جارف .. لم يكن يصدق أن المرء يمكن أن يصاب بمثله .. !

ولقد حرك بلا غاية معينة يده اليسرى .. ثم اليمنى .. ثم أصابعه ثم كل عضلة من عضلات بدنه .. ثم تقلب على أحد الجانبين .. وبعد ذلك استدار على الجانب الثانى ... كل ناحية فى جسمه كانت تؤلمه .. وكل وضع كان يزعجه .. عجيب جدا .. ! كيف صارت كل عضلة من عضلاته وكل جارحة من جوارحه فريسة لهذه الاوجاع التى لا تطاق .. ؟؟

أخذ يعصر ذهنه ويذكر ما حدث ... نعم .. كان مستقلا سيارته يخترق بها طرق الريف وشوارعه .. ثم التقى بهذا السرجنت المدعو ماريديت .. هذا صحيح .. وبعد ذلك .. ؟ بعد ذلك تسللا الى البيت وهذه المعركة الحامية التى دارت بينه وبين اللص ... او بينه وبين الشرطى فهو لا يدرى الحقيقة ... كل ما يعلم من الامر

أن معتديا مجهولا انقض عليه وأوسعه لكما ... ثم خيل اليه أنه أخذ يسقط .. هوى الى الارض نعم .. هوى ..

وعند ذلك فتح ارسين لوبين عينيه .!

فتح عينيه وفى رأسه عشرات من الاسئلة تدور به وتعصف وكلها متركزة فى نقطة واحدة هى : « أين أنا الآن .. ؟ » .

ترى أهو الآن فى قصر الكولنيل بريدج .. عند أسفل اندرج مثلا .. ؟ أم تراه خارج القصر منطرحا على المرج الاخضر . ؟ أم تراه فى السجن .. ؟ أم على سرير فى المستشفى . ؟

لقد سقط فى الهواء .. هذا أمر لا شك فيه . فمن المحتمل جدا أنه هوى من نافذة ... فهل تراه فى أحد المستشفيات .. او فى داره فهذا جائز أيضا .

الثالث هذه الاسئلة على خاطره .. وافتراض أربعة افتراضات : المستشفى .. منزله الخاص .. السجن .. قصر هايفليد .. ولو أن الوقت اتسع له لوقع على أربعين فرضا بدلا من أربعة . ! ولكنه اثر بدلا من هذا أن يرى وأن يتحقق .

وقد فتح عينيه ورأى ولكنه لم يتحقق .. ! ظن نفسه لا يزال فى حلم أو اغماء لم يستفق منه بعد .. ثم ير فوقه سقف القصر ولا سقف المستشفى ولا السماء الصافية

الزرقاء .. وانما رأى سقفا من الحجر .. الحجر الفطرى المتشقق غير المنحوت وغير الممهد ..!

وكان المنظر غريبا غير متوقع فلم يدرك حقيقة ما رأى ومرت بضع ثوان وهو واجم ساكن لا يفهم ولا يدرك حقيقة ما حوله .. العله فريسة هذيان تسبب عن صدمة اصابت راسه . ؟ خير له اذن ان يغمض عينيه ثانية .. وقد فعل وأخذ يعد حتى بلغ العشرين .. ثم فتح عينيه ثانية .. فلم ير الا السقف نفسه .. سقفا من الصخر غير المنحوت .!

لبث برهة يحدق فى السقف الصخرى .. ثم أرسل بصره مع انحدار السقف الى حيث يلتقى الجدار .. ؟ ومن عجب أن الجدار نفسه كان صخريا .. وانحدر مع الجدار الى الارض .. وكانت الارض أيضا صخرا غير منحوت .!

وأدار لوبين راسه الى الناحية الاخرى .. فى بطء .. بطء شديد لان كل حركة كانت كفيلة بأن تسبب له الما شديدا .

ومثلما رأى الى اليسار .. سقف صخرى .. وجدار صخرى .. وأرض صخرية ..! ان من الحماقة ان ينكر ما ترى عيناه ..! انه اذن فى كهف من الكهوف ..!

وكان هذا الرأى سخيفا غير مقبول فحاول ان ينكره .. كيف يمكن ان يكون فى كهف وقد كان منذ بضع دقائق

(واعلها بضع ساعات) فى قصر هايفيلد يناضل خصما مجهولا .. ؟ لقد اصابته لكمة ردته الى الوراء فاصطدم بشىء .. نافذة فى الغالب .. فتهاوت تحت ثقله وشعر بانه بدا يسقط فى الهواء .. فكيف يجد نفسه فى كهف لا يمكن أن يبعد عن القصر أقل من ثلاثين أو أربعين ميلا .. ؟

هذا رأى سخيف لا يقره العقل .

نعم .. أن جسمه اوجاع والام ... ولكن عقله لا يزال على مضائه وحسن بصيرته .. انه لا يهذى .. انه فى كهف .. هذا امر لا شك فيه .. السقف والجدار والارض .. ها هو ذا يلمس الارضية ويتحسسها أنها من الصخر ..!

وفى جهد والم انصت لوبين جالسا وهو يرجو أن ينكشف له فى جلوسه شىء جديد لم يره فى قدرته ... ولكن الامر ظل على عهده لا يتغير .. وكل ما هنالك أن الجدران والسقف بدأت تهتز .. بدأت تتأرجح .. ولكن بعد أن مضت اثار الصدمة العقلية سكن كل شىء مكانه .

وادار لوبين راسه يسارا فلم ير على قيد خطوات منه الا جدارا صخريا ، ثم ارسل بصره الى اليمين فرأى الكهف يمتد نحو عشرين ياردة ثم ينعطف يمينا ، أنه فى كهف ، ما فى هذا شك أو ريبة ، أن عقله لا يخدعه أو يضله ، أنه يرى الكهف ، ويشعر به ، ويلمسه ، بل أنه يشمه ، نعم

يشمه فلهواء الكهوف المرطوب رائحة عفنة لا تخطئها الانوف !.

عجبا . ! كيف يفسر ما حدث .! كيف جاء او جيء به الى هذا الكهف .! لقد كان منذ لحظات فى باكنج هامشير ، فى قلب المدينة ، فكيف انتقل فجأة الى قلب الكهف .؟

انتصب لوبين واقفا وقد خفت الى حد كبير وطأة الالم التى كانت تنتاب جسده ، وشعر بأن فى وسعه ان يتخذ سبيله الى النور والشمس والهواء النقى .

وعندما طاف هذا الخاطر بذهنه اجفل واستولت عليه الدهشة . عندما تسلل الى القصر الكولونيل بريدج كان الليل مرخيا سدوله ، اما الآن فالكهف غارق فى الضوء الناجم عن انعكاس أشعة الشمس التى تتسرب اليه من فجوة لا يراها لوقوعها خلف المنعطف ، ومعنى هذا انه قد انقضت عشر ساعات منذ كان فى القصر .

واشتدت لهفة لوبين الى اكتشاف الحقيقة واماطة اللثام عن هذا السر الخفى ، كان فى القصر ليلا فاذا به فى الكهف نهارا فكيف أمضى هذه الساعات كلها ؟ اظل طيلة الوقت فاقدا رشده ؟

وعلى رغم الالام الجثمانية التى كان يحس بها سار مسرعا الى منعطف الكهف ليكتشف ما وراءه ، على أنه

ما كاد يبلغ هذا المنعطف حتى جمد فى مكانه مذهولا .

لم تكن أشعة الشمس هى التى تضيء الكهف ، وانما كانت تضيئه ثلاث مصابيح كهربائية مثبتة فى السقف على مسافات متباعدة ..!

يا للعجب ..! أنوار كهربائية فى كهف . ! ولكن لا شك فى وجود هذه المصابيح . ليس الامر وهما وخيالا . ! هذه ثلاثة مصابيح ترسل ضوءها فيما حولها فاذا هو يكشف من الصخور كل فجوة فيها وكل ثنية .

سار لوبين على مهل والدهشة مستولية عليه . ولاقدامه وقع غريب غامض تكتنفه الرهبة والغموض . كان يعتقد انه خبير بانجلترا عليم بأسرارها فاذا به يدرك غلطته . لقد اقام فى هذه البلاد طويلا فلم يخطر له فى يوم من الايام أن فيها كهوفا تضيئها الثريات الكهربائية .!

على أنه طاب نفسا برؤيا هذه الثريات . فوجودها دليل على أن الكهف مطروق معروف للناس . واضاءتها فى هذه اللحظة دليل على ان فى الكهف شخصا أو أشخاصا سواه .

وبلغ لوبين المنعطف الثانى . وللمرة الثانية جمد فى مكانه مذهولا .!

كان الكهف ممتدا امامه بضع عشرات من الياردات ثم ينعطف ثانية وبين الانحناءين رأى لوبين ما أدهشه

واذهله . على قيد عشر ياردات منه رأى بيتا صغيرا مشيدا من الخشب ..! بيتا كاملا مستوفيا . له جدران وسقوف ونوافذ وأبواب . وعلى النوافذ ستائر وسجف .! ولم يكن ينقصه الا شيء واحد . المدخنة .!

ولاح له أن البيت عامر بالسكان . وكان فى الواقع بيتا جميلا . مغريا . جذابا . كان من طراز تلك البيوت التى يتوقع المرء أن يراها على ظهر الارض فى قلب الريف . وكان هناك برميل للقمامة موضوعا عند الباب يا لله .. ! ما الذى يرى .؟ بيت فى قاع كهف .!

انه يعلم ان فى أوروبا كهوفا كثيرة . وان نفرا من الصعاليك والفقراء يقطنون هذه الكهوف . ولكنه لم يكن يعلم ان فى انجلترا كهوفا مسكونة .! ربما كان هذا البيت مخزنا لبعض الادوات العلمية وانها انما وضعت فى الكهف لاغراض علمية . فاذا كان الامر كذلك فلا ريب ان العلماء موجودين فى الكهف على كثب من البيت . وكان هذا هو التعليل الوحيد المعقول . فى هذا البيت يودع أحد العلماء أدواته العلمية ويقوم بتجارب لابد لصلاحيتها من اجرائها فى بطون الكهوف .

وسار لوبين متجها الى البيت وهو يسرع الخطى . وحبز أشرف على الدار اقترب من احدى النوافذ وادنى عينيه من زجاجها وراح يختلس النظر الى الداخل .

وادرك على الفور ان شعوره الاول لم يكذبه الحقيقة ..

نعم .. ان هذا البناء بيت لا مخزن للادوات العلمية . وانه لبيت جميل . هذه هى الستائر مسدلة على النوافذ وقد طرزت بشريط أحمر يلتئم مع لون المفرش المبسوط على منضدة تتوسط الغرفة .

وفى ركن من الغرفة رأى مدفأة كهربائية وفرنا كهربائيا ومقعدين كبيرين صفت فوقهما الوسائد . وكان هناك بوفيه فوقه صحفة فيها موز وعلى الارض سجادة حال لونها . كما كانت على الجدران بضع صور . وفى سقف الغرفة مصباح كهربائى مضاء .

وظل لوبين يدير بصره فى أرجاء الغرفة مذهولا مستغربا .

ثم تراجع الى الخلف وهو يـ العودة حين فتح الباب فجأة وسمع لوبين صوتا يقول :

— هالو .!

أجفل لوبين وأرسل بصره الى ناحية الباب .. وعلى العتبة رأى بنتا صغيرة مرتدية جونيلا وجرسيا . وكانت تحدجه بنظرات باسمة ضاحكة . وكانت لها عينان جميلتان . وشعرها يتهدل على جبينها خصلات فوق خصلات .!

وعادت البنت تقول مرحبة : هالو .؟

فاجابها لوبين فى صوت ميكانيكى أجوف : هالو .

— لقد رأيتك تنظر من النافذة .

فاستولت عليه الحيرة وعراه الارتباك وقال مقرا :

— هذا صحيح .

— أتبحث عن بابا أم ماما . ؟

فازدارد ريقه وقال :

— كلا .. الواقع انى أردت أن اتبين شكل البيت من الداخل .

فابتسمت وصفقت بيديها جذلا وقالت :

— أتحب أن تتفرج على البيت .؟

— ربما كرهت أمك أن اتفرج عليه .

فقالت الطفلة فى ايمان ويقين :

— كلا .. كلا .. بل انه ليسرها ان تشاهد بيتنا . ؟ ان امى لطيفة جدا .

وقال لوبين يسألها : وهل يقيم بابا وماما هنا ؟.

فاحنت الصغيرة راسها وقالت :

— وانا ايضا اقيم هنا .؟ — آه .. طبعا .

وارسل لوبين بصره الى ثياب الطفلة .. كان ثوبها

نظيفا أنيقا .. ولم يكن فيه اى أثر للبلى .. ولم يكن هناك اى دليل على ان اهل الطفلة على حال من الفقر ترغمهم على الاقامة فى هذا الكهف محرومين من الهواء والشمس .!

وحين ذكر لوبين الشمس نظر الى وجه الفتاة . كان وجهها ينبىء بأنها صحيحة الجسم . ولكن وجنتيها كانتا أشبه فى لونهما بالشمع . لم تكن فيهما قطرة من الدم . وكانت عيناها خابيتين مجردتين من تلك اللمعة التى توحى بالصحة الموفورة .!

وقطب لوبين جبينه أسفا .. لم يكن لديه شك فى أن هذه الطفلة قلما رأت الشمس .. والا لما كانت لها هذه الوجنات الباهتة وهذه العيون الذابلة .! وداخله غضب شديد على أهلها الذين يحرمونها من هذه النعمة . : أى أب، وأية أم . ؟ انهما بلا شك مخلوقان مجردان من الرحمة .!؟

ومال لوبين الى الطفلة وقال يسألها : ما اسمك .؟

— جراسى ميلر .

ثم أردفت تقول : سأبلغ تسع سنوات قريبا .

أتقيمين كثيرا فى هذا البيت .؟

— أقيم كثيرا . ! ان ماما وبابا يقيمان هنا باستمرار . ان البيت جميل .. أتحب ان تشاهده .!

ولكنه ظل جامدا فى مكانه لا يبرحه . بل أنه لم يسمع السؤال الذى طرحته عليه الطفلة . ! كان منهمكا فى التفكير فى شأن أهل هذه الدار . ما الذى يحملهم على الاقامة فى هذه الكهف .؟ وارتد ذهنه مرة أخرى الى مسألة العلماء .. من الجائز أن يكون أبوها حارسا لعدة كهوف تتخذ مخازن للادوات العلمية مثل كهوف شيزلهيرست .؟

ولكن مهما يكن من الامر فهذا الرجل — حارسا كان أو غير حارس — لابد أن يكون وغدا ونذلا .. اذ كيف يحبس ابنته فى هذا الكهف مدى الحياة ويحرمها من الشمس والهواء النقى . ؟ لا بد أن يرفع أمره الى البوليس بمجرد خروجه من الكهف .

وقال لوبين يسأل الطفلة :

— ألا تذهبين الى المدرسة يا جراسى .؟

— نعم .. ومس لو هى التى تتولى تعليمى . وانى أحبها .

— وهل تعلم مس لو أنك تقيمين فى كهف ؟

فنمت عينا الطفلة على الحيرة وهزت رأسها فى ارتباك وقالت :

— لست ادرى ما تعنى . ما معنى كلمة « كهف » ؟

— كهف . ؟ هذا طبعا . !

ولوح بيده فيما حوله .

— فادارت الطفلة عينيها فى المكان ونظرت الى السقف والجدران والارضية ثم قالت :

— هذا . ؟ ولكن هذا جزء من الدنيا . ؟

— آه .. طبعا .. جزء من الدنيا ولكنه يسمى ..

وامسك عن الكلام .. لم يكن خبيرا بمحادثة الاطفال ومداعبتهم ولم يكن يدرى كيف يعبر عما يجول فى خاطره بحيث يفهم هذه الطفلة ما يرمى اليه .

ثم اردف يقول :

— وهل معلمتك تقيم فى كهف أيضا . ؟

— أنها تقيم فى الدنيا . !

— الدنيا حيث تمطر السماء وتشرق الشمس ؟

فهزت الطفلة راسها وقالت فى ارتباك :

— تمطر السماء وتشرق الشمس .؟ انى لم أسمع هذه

الكلمات من قبل .! ما معنى السماء .؟ وتمطر .؟ والشمس .؟ انى لا أعرف لهذه الكلمات معنى .!

ومع ذلك فهى تذهب الى المدرسة .! وأى طراز من المدرسات مس لو هذه . ؟ أى طراز وتلاميذها لا يعرفون معنى الكهوف أو الشمس أو المطر أو السماء . ؟ غريب جدا . ! أنكون هذه الطفلة فى التاسعة من عمرها ولا تدرى لهذه الكلمات معنى .؟

وخطرت له فكرة فجائية . يحتمل ان تكون هذه الطفلة بلهاء .؟ وحدجها بنظرة فاحصة .! ان هذه العيون الملتمعة لا يمكن ان تدل على البلاهة .!

وقبل أن تنفرج شفتاه عن سؤال جديد سمع وقع خطوات تقترب .

وضمت الطفلة يديها وهتفت تقول :

— هذه ماما قد جاءت .:

وفى نفس اللحظة ظهرت امرأة من خلف المنعطف .. امرأة جميلة على شفتيها ابتسامة لطيفة مليئة بالحنان .؟ ولكنها ما كادت ترى لوبين حتى غاضت أمارات البشر من وجهها وغامت عيناها ووثبت الى طفلتها فأمسكت بذراعها ووقفت أمامها كأنما تريد أن تحميها من شر مفاجىء وقالت تخاطب لوبين فى جفاء ووحشية :

— ماذا تفعل هنا .؟ انك تعلم أنه غير مباح لك أن تدخل الى شارع بريتون . ؟ كيف تجاسرت على الحضور .؟ لا بد أن اشكوك .!

فابتسم لوبين معتذرا وقال :

— انى أتمنى ان انبئك بما جاء بى الى هذا المكان . ولكن الواقع انى انا نفسى أجهل جواب هذا السؤال .!

وأدرك أن المرأة لم تصدقه . وقالت فى غضب ظاهر :

— لا بد ان أشكوك .!

— لا بد ان أشكوك .!

— انى اسف جدا .! اذ ليس من عادتى أن أتطفل أو أتهجم يا مسز ميلر . ولكن قبل أن نسترسل فى هذا الحديث هل لك أن تجيبى على سؤل سأطرحه عليك . ؟ أين انا الآن . ؟

— لقد أنبأتك بذلك .. أنك فى شارع بريتون .؟

— نعم .. ولكن اين يقع شارع بريتون . ؟ هل هذه الكهوف فى باكنج هامشير . ؟

— كهوف .؟

ورفعت يدها الى فمها على عجل كأنما تريد ان ترغم نفسها على عدم ترديد هذه الكلمة مرة اخرى . ثم قالت :

— هل وصلت حديثا .؟

فضحك لوبين وقال :

— الحق أنى لا درى كم من الوقت مضى على وأنا هنا .؟

لقد اغمى على نحو ربع ساعة فيما اعتقد .

— ومن الذى جاء بك .. ؟

— هذا ما لا علم لى به .. لقد كنت غائبا عن رشدى .

فقطبت جبينها وقالت :

— وهل تدرى من الذى افقدك الرشد ؟

— وددت لو انني أدرى !

— الا تعلم من الذى قدم اليك المخدر ؟ هارى نيكولاس أم جورج سوندرز !

فهز لوبين رأسه وقال :

— لم يعطنى أحد مخدرا يا مسز ميلر . ! لقد وقعت فاصطدم رأسى بالارض وغبت عن صوابى .

وخيل الى لوبين ان وميضا خفيفا التمع فى عينى المرأة .. وميضا هو مزيج من الدهشة والخوف والرجاء .. ثم تسارعت انفاسها وأخذ صدرها يعلو ويهبط كأنما كان فى كلماته ما ازعجها وما اثار انفعالها .

وعادت المرأة تقول :

— ولكنك مجرم ؟ أليس كذلك ؟

وكانت كلماتها اتهاما أكثر منها سؤلا ، ولم يكن لوبين على استعداد لان يسمع هذا السؤال ، فاجفل ثم قطب جبينه ، وادرك على الفور أنها ادركت جواب سؤالها حتى دون ان يجيب ، وأدرك أنها بدأت تشمئز منه وتحتقره !

وظل لوبين صامتا لا يتكلم .

وخيرا قالت المرأة : لقد خيل الى انك ..

ثم أمسكت عن الكلام . وهزت كتفيها .

وقال لوبين يسألها : ما الذى خيل اليك يا مسز ميلر ؟

— خيل الى انك لست مجرما ، وانك جئت الى هذا المكان بسبب حادث شبيه بالمعجزات .

ولم يفهم لوبين ما ترمى اليه فقال :

— ولماذا يكون قدومى الى هذا المكان سبب حادث شبيه بالمعجزات ؟ الا يمكن أن يكون بالوسائل العادية ؟ ومع ذلك فانا اكرر عليك القول بأنى لا أعرف كيف جئت ، واست أعرف أين أنا .. ؟

ورأى فى عينيها الانكار وعدم التصديق ، وفتحت فمها

لتتكلم ولكنها آثرت أن تطبقه دون أن تنطق بكلمة واحدة .. ومالت المرأة الى الامام وجعلت تحدجه بنظرة فاحصة كأنما هناك هاتف خفي يدعوها الى تصديق ما يقول هذا الرجل الماثل أمامها .

ومرت لحظات وكلاهما صامت لا يتكلم . وكان صدرها لا يزال اضطرابه يعلو ويهبط .

واخيرا تكلمت مسز ميلر قائلة :

ـ أتقسم على انك أصدقتني القول .. ؟ وانك لم تحضر الى هذا المكان من تلقاء ذاتك وانك لا تدرى كيف جئت . ؟

ـ أقسم على أنك تلك هي الحقيقة .

فهتفت المرأة في يأس : اذن فلينقذك الله .. !

وشعر لوبين بالخوف يتسرب الى نفسه .. كان شجاعا وكان بطلا لا يرهب شيئا .. ولكنه لم يملك الا أن يرتعد أمام كلمات المرأة . ولهجتها والقنوط الماثل في عينيها .!

وقال يسألها في لهجة حادة :

ـ فلينقذك الله .. ! من أي شيء . ؟ ما الذي تعنين . ؟

فقالت المرأة تجيبه في كلمات حزينة يائسة :

ـ ستبقى هنا طويلا .. ستبقى مدى الحياة . ؟

ـ مدى الحياة .! ماذا تعنين .! أي مكان هذا . ؟ أين أنا الآن .؟ أجيبي أين أنا .؟

فقالت المرأة في يأس :

ـ انك في ملجأ العصبة السرية ..! الا فليرحمك الله .!

الفصل الثالث

لم يخطر ببال أرسين لوبين أن المرأة مصابة بخبل في عقلها .. ان كلماتها تنم على صفاء الذهن والاخلاص والرحمة نعم ان عينيها تنمان على أن شعورها يلتئم مع كلماتها .. انها تحس رثاء له ورحمة عليه .. انها لايمكن أن تكون مختلة العقل .

ولكن ما معنى هذا .؟ وكيف يقضي حياته في هذا الكهف ؟ وما معنى قولها أن هذا الكهف ملجأ العصبة السرية . ؟

أهي كلمات جنونية ينطق بها شخص غير مجنون .. ! حقا از اللغز بدا يدلهم .. ! لقد كان في أول الامر يتساءل عما جاء به الى الكهف والان أصبح يتساءل : كيف السبيل الى الخروج .؟

وقال لوبين يسألها في لهجة حادة :

ـ ماذا تقولين .؟ وما هي هذه العصبة السرية التي عنها تتحدثين .؟ وما الذي يقسرني على البقاء في هذا الكهف

مدى الحياة ..؟ انك تهذين .. من الذى يستطيع ان يرغمنى على ..

وامسك لوبين عن الكلام اذ ردد الكهف صدى نداء بعيد ما ان سمعته المرأة حتى بدا الرعب فى عينيها جليا وهمست تقول فى ذعر :

— ادخل .. ! ادخل .. ! ان الحراس قادمون وان راوك قتلوك فى الحال .. ! أسرع ..!

ولما رأته جامدا فى مكانه لا يحاول الدخول اخذت بذراعه وجذبته الى الداخل . واغلقت الباب خلفها على عجل .

والفى لوبين نفسه فى قاعة الاستقبال التى رآها من قبل وهو يختلس النظر من وراء زجاج النافذة .

وبعد ان أراد لوبين نظرة سريعة فى أرجاء المكان ارتد الى المرأة وقال يخاطبها :

— اسمعى .. الا تريدين ان ..

ولكنها عاجلته بوضع يدها على فمه تمنعه من الكلام ، واستغرق لوبين سلوكها . ولكنه اثر الصمت حتى يرى ما ستتمخض عنه الحوادث . وفى السكون الذى اشتمل المكان سمع وقع اقدام تقترب . وارسل بصره الى النافذة فرأى ان فى وسعه ان يرى ما يجرى فى الخارج من خلال فجوات الستار الشفاف .

وبعد لحظات بصر برجلين يظهران أمام الدار .. كانا مرتديين ثيابا عادية ولكن على رأسيهما قبعتين من الطراز الذى اعتاد سائقو السيارات استعماله . وفى مقدمة القبعة شعار ازرق يعلوه خط احمر متعرج المفروض أنه يمثل البرق . وعلى ذراع كل حارس شريط يحمل حرف « ج » دلالة على ان صاحبه من الحراس . وكان كل منهما يحمل بندقية صغيرة من الطراز السريع الطلقات .

وكان الرجلان يتبادلان الحديث فى كلمات سريعة . ثم تجاوزا الدار وسار أماما ، ولما مرا بالبيت أمسكت المرأة بذراع لوبين تضغطها فى خوف وذعر . وهى تومىء الى فمها بأصبعها تأمره بأن يلزم الصمت .

واتجه الحارسان الى منعطف الكهف الذى جاء منه لوبين منذ دقائق . وبعد لحظات سمع وقع خطواتهما وهما يعودان أدراجهما . فيمران بباب الدار مرة أخرى ويواصلان سيرهما .

ولما خمدت خطواتهما أرخت مسز ميلر قبضتها على ذراع لوبين وتهالكت على مقعد قريب وندت عن صدرها تنهيدة عميقة .

وابتدرها لوبين بقوله :

— والآن يمكنك أن تتكلمى يا مسز ميلر .. ؟

ولكنها قاطعته بأن قالت :

يجب أن تأوى جراسى الى فراشها اذ حانت ساعة النوم . وبعد ذلك يمكننا أن نتبادل الحديث كما تشاء .. هيا بنا يا جراسى .

ونهضت المرأة وسارت تتبعها ابنتها . وعندما بلغتا باب الغرفة تحولت الطفلة الى لوبين وقالت وهى مشرقة الوجه

— أسعدت مساء يا سيدى ..!

— أسعدت مساء يا جراسى .. أرجو لك نوما هنيئا وعميقا .

— انى دائما أنام نوما هنيئا وعميقا .. اليس كذلك يا أماه .. ؟

ولما خلا لوبين الى نفسه جعل يقلب وجوه الرأى فيما صار اليه .. ان حياته مليئة بالمغامرات . ولكنه لم يسر نفسه من قبل فى كهف مضاء بالكهرباء مشيدة فيه دار جميلة .. ولم يقل له أحد انه سيمضى حياته كلها فى هذا الكهف ..!

كهف .. بيت مشيد من الخشب .. العصبة السرية .. انذار الموت . البنادق السريعة الطلقات .! كل هذه أشياء جديدة عليه غريبة عنده .! انها أشياء غامضة مستغلقة لا يدرى كيف السبيل الى فهمها وأدرك كنهها .! على أن الشىء الذى أعياه ادراكه هو الكيفية التى وصل بها الى

الكهف . اذ يلوح من كلام مسز ميلر أن دخول الكهف أشبه بالمستحيلات . ولكن كيف دخلته هى اذن .؟ ومن الذى جاء به الى هذا الكهف .؟ وماذا حل به .؟

وكان لوبين لا يزال يفكر فى هذه المعضلات دون أن يقع على حل يستريح اليه الخاطر حين رجعت اليه مسز ميلر .

وتحدثت المرأة فى صوت هادىء قائلة :

— الآن وقد نامت جراسى يمكننا ان نتكلم ، فما كنت لاحب أن يجرى هذا الحديث أمامها .

ثم قامت الى الفوانيس فاسدلت عليها الستائر وأحكمت ضمها بعضها الى بعض حتى لا تكون بينها فجوة يختلس منها الحراس النظر الى الداخل . ثم اضاءت النور الكهربائى وأشارت الى أحد المقاعد وقالت :

— ألا تجلس على مقربة منى حتى نتحدث فى صوت منخفض ؟

وكنت مسز ميلر قد جلست على مقعد ازاء المدفأة الكهربائية .

واستولى لوبين على المقعد الذى أشارت اليه ربة الدار وأخرج علبة سجائره وقال يسألها :

— أتدخنين .؟

فترددت برهة ثم قالت وهى تهز كتفيها :

— اعطنى سيجارة من فضلك . ان التدخين يهدىء الاعصاب .. لقد أهجت أعصابى بقدومك .

وناولها لوبين سيجارة واشعل لها عودا من الكبريت وهو يقول : لماذا .؟ ما السبب .؟

— لانك تذكرنى بدنيا كم تمنيت لو نسيتها .! تذكرنى انى لاضحى من حياتى خمسة أعوام لارى الدنيا مرة أخرى .! أريد ان ارى الشمس وأعدو فى الامطار واشم الحشائش الندية والورود الازاهير .! أريد ان اشعر بالريح وهى تضرب وجنتى .! أن ارى ندى الصباح وهو يتساقط على أوراق الشجر ..

ورآها لوبين تقبض أصابعها .. وارتفعت نبرات صوتها وقالت مسترسلة :

— انى اكره أن أتحدث على هذا النحو .! اكره ان استعيد هذه الذكريات .! لقد امضيت فى هذا الكهف احدى عشرة سنة .؟ احدى عشرة سنة رهيبة .. قاسية .. مفزعة ..! ولولا ان الله أرسل الى جيم وجراسى لقتلت نفسى منذ أعوام وأعوام .. من أجلهما صبرت وتظمت والا لقذفت بنفسى الى النهر كما فعل كثيرون من قبلى .!

وأمسكت المرأة عن الكلام حين رات أن الانفعال اشتد بها وانها وشيكة بأن تفقد سلطانها على نفسها . وأخذت تدخن تباعا وهى مرسلة بصرها وراء سحب الدخان التى تتصاعد الى سماء الغرفة .

وحين عادت الى تتمة حديثها كان صوتها هادئا ساكنا ونبراته متزنة . وقلت :

— لقد وعدت بأن انبئك بسر المكان الذى أنت فيه فهل تعلم شيئا عن هذه المسألة .؟

— كلا .. لا شيء على الاطلاق .!

— أنت هنا الآن فى دنيا العصبة السرية .! انها دنيا لا يعيش فيها الا القتلة واللصوص والمحتالون ومهربو المخدرات واعداء الانسانية . انها دنيا الاجرام والرذيلة . دنيا يعمرها مجرمون آثروا ان يسجنوا أنفسهم فى هذه الكهوف مدى الحياة على أن يظلوا فى الدنيا الاخرى فيقعوا بين أيدى رجال البوليس يورسلوا الى المشانق أو يزجوا فى السجون .!

ورات فى عينى لوبين سؤالا لم يجر على لسانه فقالت فى مرارة :

— نعم .. أنا أيضا كنت مجرمة .! كنت قاتلة .!

ولم يستطع لوبين ان يخفى ثر هذه المفاجأة فى نفسه فقال : قاتلة .!

وبدا الامر عنده عجيبا .! كيف تكون هذه المراة قاتلة وهو لا يتبين فى سيماها الا النبل والشرف والاستقامة .! ان عينيها تنمان على الصراحة والاخلاص فكيف تكون قاتلة ولها هذه الطهارة .؟ لو انها قالت انها سارقة او محتالة لهان الامر . أما ان تعزو الى نفسها شر الجرائم .؟

وعضت المراة على شفتيها واسترسلت تقول :

— نعم .. انى قاتلة .. وقصتى عادية مألوفة . كان لى اب وام لم أر أحن ولا ابر منهما .! وقد اوليانى حبا عظيما ودللانى واخيرا حين بلغت التاسعة عشرة من عمرى شعرت بان فى احشائى طفلا . ولا داعى ان اذكر لك تفاصيل هذا الحادث . حسبك أن تعلم ان قصتى هى قصة كل فتاة أحبت واسلمت نفسها الى من تحب .! ولم اجرؤ على أن أحادث أبواى بما جرى . فلما اقترب موعد الوضع زعمت لهما انى مسافرة عند صديقة لى لامضى عندها شهرا . واستأجرت كوخا فى قلب الغابة الجديدة اقمت فيه .. وهناك وضعت الطفل .

وكانت نبرات صوتها قد أخذت تشتد وتقسو وهى تتحدث كأنما تحاول ان تحطم فى قلبها نزعات الشعور الانسانى خشية أن تنهار شجاعتها وتتهدم .

ثم استرسلت تقول :

— ولست أدرى ما الذى حدث بعد ذلك . وهذا هو العذر الوحيد الذى أستطيع ان التمسه لنفسى . وربما كانت قد غشيتنى غاشية من الجنون فلم اكن أدرى ما صنعت . لقد قتلت طفلى .! نعم .. قتلته ودفنته .! وحين ثاب الى رشدى ادركنى الخوف مما صنعت فانطلقت هاربة من الكوخ . هربت وقد وقع فى روعى ان رجال البوليس يطاردوننى وانه ينبغى ان اختبىء .. يجب ان اختبىء فى مكان لا يعرفه انسان .. وفى ذات يوم جاءنى رجل لا أعرفه وانبانى بأنه سمع أن رجال البوليس فى أثرى وانى متهمة بالقتل . وعقب ذلك بقوله انهم ظفروا بى وارسلونى الى المشنقة بلا نزاع . ثم قال ان هناك وسيلة للفرار من هذه المطاردة وحدثنى عن هذا الكهف . فلم أر ما يحول دون مرافقتى له ولم يخطر لى ببال أى نوع من الحياة سأمضيها هنا .! ولكنى ما كدت أطأ الجنة بقدمى حتى فهمت ما غاب عنى .

فقال لوبين متسائلا : الجنة .؟

— نعم .. لقد أطلقوا على هذا المكان اسم « الجنة » زيادة فى الترغيب والتضليل .. والواقع أنه جحيم لا يطاق

وسكتت مسز ميلر هنيهة ثم استرسلت قائلة :

— كم كتب الكتاب عن عوالم المجرمين .. وكم ساروا مع الخيال شوطا بعيدا .. الا ليتهم يحضرون الى هذه « الجنة » ليروا كيف تكون حياة المجرمين .! ليروا كيف تكون الآلام والعذاب والجحيم .

وبدأت المسكينة ترتعد .. وطغى عليها الانفعال الذى غالبته طويلا وراحت تبكى بكاء مريرا وانهمرت عبراتها .! وفجأة اخفت وجهها فى يديها وأخذت تنشج وتعول فى صوت مسموع .

ولكن ثورة حزنها ما لبثت أن خمدت ..

جففت مسز ميلر عينيها وأرسلت بصرها الى أرسين لوبين وقد أبرقت عيناها والتعمتا .

ولم يغب عنه مثار هذه الدموع التى سكبتها .. ولكنه لم يلق باله الى هذا الامر .. كان ذهنه مكتظا بأشياء كثيرة لا عداد لها .. أشياء لازالت غامضة مستغلقة .!

وفجأة تحول اليها لوبين وقال :

— ألا زلت خائفة من السجن .! أعنى من الصعود الى هذه الدنيا .؟

وأومأ برأسه الى الدنيا « الاخرى » الواقعة فوق الكهف .

وضحكت المراة فى تهكم واستهزاء ، وقالت :

— السجن فى الدنيا الاخرى جنة اذا قيس الى هذا السجن الذى أعيش فيه الآن وأتعذب .!

— اذن لماذا لا تهجرينه .؟ لماذا لا ترجعين الى الدنيا الاخرى وتحتملين أية عقوبة يمكن أن ينزلها بك القضاء .؟ انى اعتقد ان القضاة سيقدرون هذه الظروف الشاذة التى أحاطت بك واعتقد انهم سيخففون عنك العقوبة ..!

قالت المراة : أعود الى الدنيا الأخرى . ؟

ثم تهدم صوتها وغشية الحزن والمرارة وقالت :

— وهل من سبيل الى العودة . ؟

— هل من سبيل . ! طبعا هناك سبيل ! . اذا كان الدخول ممكنا فالخروج ممكنا أيضا . !

— ليس ممكنا بالنسبة لى .. ولا بالنسبة الى زوجى أو ابنتى . ! الخروج محرم محظور الا على رجال مجلس الادارة . ! تقوم على طريق الخروج وابة ضخمة من الحديد ليس لها الا مفتاح واحد يحتفظ به من يدعى بيكلي .. ومع ذلك فالمفتاح لن يغنى عنا شيئا لو فرض وظفرنا به فان الابواب متصلة بجرس انذار كهربائى يدق دقا متواصلا شديدا اذا ما فتحت البوابة فيستيقظ على رنينه أهل الكهف جميعا . !

فقال لوبين فى هدوء :

فهزت مسز ميلر راسها وقالت فى مرارة :

— انى لم انبئك بعد بكل ما اعلم .. فهناك عدا البوابة الحديدية والجرس الكهربائى حارسان مدججان بالسلاح يقومان عند البوابة ليل نهار .. وهل تدرى ما هو سلاحهما مدفع مترليوز صغير .. نعم ، ان كلا منهما يحمل بندقية

سريعة الطلقات . فلو حاول احد ان يتجاوزهما لأفرغا فى جسمه سيلا من الرصاص .

وقطب لوبين جبينه . الان بدأ يدرك حقيقة الامر .. لقد صدقت مسز ميلر حين قالت انه مقضى عليه ان يبقى فى الكهف مدى الحياة ، سيحرم من الدنيا حتى الابد .. الدنيا التى لا تطيب الحياة له الا اذا شعر بانه حر له أن يروح ويغدو فيها كما يشاء ، لا يقيده غل ولا يضمه سجن . ! ؟

ماذا . ؟ اقضى عليه بالا يرى النجوم والقمر والشمس بعد يالوم . ؟ ماذا . ؟ اقضى عليه بأن يحرم من مشاهدة السماء الصافية والغيوم المتلبدة . ؟ اقضى عليه بالا يسمع ضجة المركبات ونفير السيارات . ؟ اقضى عليه بأن يعيش فى هذه الكهوف مدى الحياة حتى يذبل العمر . ؟ كلا .. كلا .. هذا لا يمكن ان يكون .

وتحول اليها ثانية وقال فى صوت متهدج :

— ومن هم اعضاء مجلس الادارة الذى حدثتنى عنه الآن .. ؟ لماذا يريدون ان يحبسوا هؤلاء الناس فى هذه الكهوف مدى الحياة ؟ لاية غاية يفعلون هذا . ؟ وما يعنيهم من أمر القوم بقوا او انصرفوا ؟

— يعنيهم بقاؤنا لاننا عبيدهم .. ! نحن عبيدهم الارقاء . ! بواسطتنا يربحون عشرات الالوف من الجنيهات . عشرات من الالوف تتيح لهم ان يعيشوا فى الدنيا « الاخرى » عيشة بذخ وترف .. !

— واسطتكم يربحون عشرات الالوف . ؟ كيف هذا . ؟

— هذه الكهوف هى « مطبخ » لصوصية . ! مصنع لصوصية . ! بوتقة لصوصية . ! نضف المسروقات على الاقل ترسل الى هذه الكهوف لتغيير اشكالها او بيعها .. الجواهر التى تسرق من الدنيا العليا ترسل الى هذه الدنيا السفلى حيث تنزع احجارها فيذاب الذهب ويصاغ على اشكال جديدة لا تمت بصلة الى الحلى القديمة المسروقة .. وترسل هذه الحلى الجديدة الى الدنيا الاخرى حيث تباع فى أماكن واطمئنان دون ان يجرى ببال احد أنها كانت مسروقة .. وفى هذه الكهوف تزور الاوراق المالية .. يزورون كل نوع من نوع الاوراق العالمية عدا الاوراق الانجليزية . لان لرجال مجلس الادارة من الدهاء والذكاء ما يحملهم على أدم اغراق السوق الانجليزية بأوراق النقد الانجليزى حتى لا يثيروا ضدهم ثائرة رجال سكوتلانديارد .. حسبهم أن يزيفوا الفرنك الفرنسى او المارك الالمانى او الدولار الامريكى .. وفى هذه الكهوف تصنع الصور الاباحية وتطبع الكتب المبتذلة المنافية للاداب . فى هذه الكهوف تنسخ صور مزيفة لاشهر اللوحات الفنية . وجملة القول ان فى هذه الكهوف تتجسد الرذيلة ويرتكب كل نوع من أنواع الجرائم .. ! أوه . ! ما افظع هذه الحياة . ! ما افظعها . !

وهز لوبين رأسه دلالة على الفهم .. نعم .. ان المجرم

اذا ما أمن جانب البوليس استطاع ان يأتى المعجزات .. استطاع ان يقدم على اى نوع من أنواع الجرائم بلا خوف ولا وجل .. فى وسعه ان يشيد مصنعا لتقطير الكحول دون ان يخشى شيئا .. فى وسعه ان يقيم مصنعا للاسلحة ثم يهربها الى جميع انحاء العالم .. ! فى وسعه ان يفعل اى شىء وكل شىء . !

ولكن من المحتمل أن مسز ميلر تبالغ فى القول .. ! انها مضطربة شديدة الانفعال فلعلها بالغت فى الحديث .. ! اهناك حقا دنيا لا يملك المرء منها فرارا .؟ هذا كلام فذ .

وفى هذه اللحظة فطن لوبين الى أن الباب يدفع رويدا رويدا وفى حرص وحذر كانما لا يريد الداخل ان يلفت النظر . وفجاة رأى فوهة مسدس تبرز من شق الباب مصوبة الى صدره .

الفصل الرابع

كان مستحيلا ان ينقض لوبين على هذا المهاجم المفاجىء لبعد المسافة بينهما .. ودار بعينيه فيما حوله ينشد وسادة أو شيئا من هذا القبيل يقذف به حتى يربكه فلم يجد . وادرك ان عليه ان يتريث وينتظر مادامت سبل النجاة قد سدت فى طريقه .

وفتح الباب تدريجيا .. ودخل رجل ما رأته مسز ميلر حتى تنهدت فى ارتياح وقالت وهى تتنفس الصعداء :

— جيم .. لا تطلق النار .. ! اتوسل اليك . !

جيم .. ؟ انه اذن زوج مسز ميلر .. ! وتنفس لوبين الصعداء بدوره ..

وقال جيم فى لهجة حادة يخالطها الغضب :

— ماذا يفعل هذا الرجل هنا . ؟ سأقتله كالكلب الحقير ان كان قد اساء اليك .

— انه صديق يا جيم .

وحملق ميلر فى أرسين لوبين دون ان يخفض مسدسه وقال فى جفاء :

— ليس لنا أصدقاء فى هذا الجحيم .. !

— ولكنه وصل الان توا . ! انه ليس من رجال العصبة السرية . ؟

وما سمع ميلر كلمات زوجته حتى اشتدت دلائل الريبة والتوجس الظاهرة فى ثنايا وجهه وقال : هل ذكر لك هذا . ؟

— نعم .

— اذن فهو كذوب يا سالى . ! ان البوابة لم تفتح اليوم . !

ثم اقترب من لوبين وقد التمعت عيناه غضبا وحقدا .. كان فى هذه اللحظة اشبه بالمجانين .. وقال :

انك جاسوس نذل . ! وسأفرغ رصاص مسدس فى صدرك حتى ولو ذهبت الى الجحيم بسبب ذلك .

وجرت سالى الى زوجها وتعلقت بذراعه فى خوف وذعر وهتفت تقول :

— جيم .. ! لا تفعل ذلك يا جيم . ! اقسم لك انه صديق لنا .. انظر اليه .. ! اترى فى وجهه دلائل العداء . ! وفضلا عن هذا فانك لا تعرفه . ! أرأيت وجهه من قبل . !

ونظر جيم فى امعان الى أرسين لوبين ثم أحنى رأسه وقال : الحق أنى لم ار وجهه من قبل . ولكن ليس معنى هذا انه صادق فيما يروى .. ان البوابة لم تفتح اليوم .

— انه لم يأت من طريق البوابة .

— ماذا تقولين . ؟ لم يأت عن طريق البوابة . ؟ اذن كيف جاء . ؟

وانبرى لوبين فى هذه المرة يجيب على هذا السؤال فقال :

— لست ادرى .

وقالت سالى تؤيده :

— هذا صحيح يا جيم .. انه لا يدرى كيف جاء .. لقد اغمى عليه فلما استفاق القى نفسه طريحا على ارض الكهف .

فقال جيم يقاطعها :

— دعيه يتكلم عن نفسه .. فى اية جهة من الكهف وجدت نفسك . ؟

— هناك .

وأومأ لوبين براسه الى الناحية التى وجد نفسه فيها عندما افاق .

ولكن هذا الجواب لم يرض جيم اذ ظل على توجسه وريبته وقال فى لهجة وحشية :

— يا لك من كذوب ! ليس فى هذه الناحية اى طريق للدخول أو الخروج ، انه طريق مسدود !

فهز لوبين كتفيه وقال فى هدوء :

— ولكن هذا لا يغير من الحقيقة شيئا .. لقد وجدت نفسى هناك ..

واعقبت هذا سكتة قصيرة .

ثم قالت سالى متوسلة :

— لم ترميه بالكذب يا جيم ؟ ان قلبى يحدثنى انه صديق مخلص وانه لا يكذبنا القول . الا تتمنى أن تقع على صديق يخلص لك الود .. ؟

فقال جيم فى مرارة :

— يعلم الله انى لا اتلهف الى شىء تلهفى الى صديق !

وظل يحدج لوبين بنظرة فاحصة لا يزال الشك مائلا فيها وان خلت من الغضب والحقد ثم قال :

— أتريد ان تقول انك تجهل الطريقة التى وجدت نفسك بها فى هذا المكان ؟

— تلك هى الحقيقة . ولقد ظننت فى أول الأمر انى نقلت الى هذا المكان نقلا .

فقال جيم فى لهجة حادة :

— نقلت .. ؟ ومن الذى نقلك .. ؟ ولماذا !

— هذا ما لا علم لى به !

فهز جيم رأسه فى تهكم وقال وقد عاودته شكوكه :

— يلوح لى ان هناك اشياء كثيرة لا علم لك بها ! وحيث انك نقلت الى هذا المكان فكيف وصلت اليه !

وقال لوبين وقد ضايقته هذه الاسئلة المتوالية :

— قلت لك لا اعرف !

— ولكن كيف يمكن ان تجد نفسك فى هذا المكان أن لم تكن قد حملت اليه حملا .. هل يمكنك أن تبرهن على انك صادق فى قولك .. ؟

— وانى لى هذا البرهان .. ؟

— سنرى .. !

ولوح جيم بمسدسه صوب الباب وهو يقول :

— انهض .. واخرج ..

قالت سالى فى انفعال :

— جيم .. ماذا تنوى أن تفعل به .. !

— سأطلب اليه أن يرينى المكان الذى يزعم انه وجد نفسه فيه عندما استفاق من اغمائه .. هيا .. سر أمامى .. واياك ان تتكلم أو تحدث جلبة .

ولم يكن هناك مفر من الاذعان .. غادر البيت الى الكهف ثانية وساء فى حذر متخذا نفس الطريق الذى جاء منه وفى اثره جيم وزوجته .. وكان الثلاثة صامتين لا ينسبون بكلمة واحدة وهم يرسلون البصر خلفهم من لحظة الى أخرى كانما يخشون ان يباغتهم احد .

وبعد دقائق وصل لوبين الى المكان المنشود .. ونسى

اذ ذاك أن هناك مسدسا مصوبا اليه فاخذ يفحص الجدران والارضية والسقف على عجل . وما لبث ان تأكد أن الصخر أصم لا منفذ فيه .

وقال جيم فى لهجة يخالطها التهكم :

— هيه .. فى هذا المكان وجدت نفسك .. ؟

— نعم .

— جميل جدا .. ! اظن ان الارض انشقت عنك أو انك سقطت من السقف .

ولم يكن فى وسع لوبين ان ينكر ان جيم محق فى تشككه وتوجسه . فالصخر كما يلوح أصم مسدود فكيف جاء الى هذا المكان .. ؟ ولم يكن لوبين يدرى حقيقة المسافة التى بين الكهف والارض ولكنه رجح انها ليست كبيرة .. فكانت هناك مسالة لا شك فيها وهى انه حمل الى هذا المكان حملا . ما دام من المستحيل أن يمر خلال الصخور والاحجار .. ولكن من الذى حمله والدخول والخروج من الكهف شبه مستحيل ! ..

ومع ذلك فالحقيقة باقية لا ريب فيها وهى انه وجد نفسه فى هذا المكان ؟ ..

وأوما لوبين بأصبعه الى نقطة معينة من الكهف وقال :

— فى هذا المكان وجدت نفسى ! ..

وقبل ان يفتح جيم فمه بكلمة واحدة وثبت سالى الى

حيث أشار لوبين وانحنت على الارض والتقطت شيئا ما ثم تحولت الى زوجها وفى عينيها دلائل الظفر وقالت :

— انظر ..!

وبسطت يدها فاذا على راحتها زر أسود صغير .. زر هو صورة طبق الاصل من أزرار القميص الاسود الذى يرتديه لوبين !..

نظر جيم الى الزر ثم ارسل بصره الى قميص لوبين .. وكذلك فعلت سالى .. ولكنها فطنت الى شىء آخر لم يفطن اليه زوجها فاسرعت رباط العنق قليلا وتشير الى موضع زر ضائع وهى تقول :

— جيم ..؟ هل اقتنعت الآن ..؟

فاحنى زوجها رأسه وقال :

— اقتنعت !..

ورد المسدس الى جيبه دلالة على انه اقتنع حقيقة وأردف يقول :

— الآن سنعود الى الدار فليس من الحكمة ان يرانا أحد خارج البيت فى مثل هذه الساعة من الليل .

ولما احتواهما المنزل مرة أخرى دعا جيم لوبين الى الجلوس وقد تغير سلوكه وزايلته الشكوك . بل لقد كان الآن ودوا بقدر ما كان من قبل نفورا متوجسا . وكانت عيناه تلتمعان ببريق الثقة والاطمئنان .

وقال ميلر يسأل لوبين :

— والآن هل لك ان تحدثنى بما كان قبل وصولك الى الكهف .. أم لعلك فى هذا السؤال فضولا غير مستحب ؟.

وقال لوبين يسأل بدوره :

— دعنى قبل ان اجيب على هذا السؤال ان اطرح عليك سؤال آخر . هل جميع أهل الكهف مجرمون ؟

— كانوا جميعا مجرمين ! نعم كانوا .. فان الفرصة لا تتاح لهم الآن لارتكاب الجرائم فى الكهف .

ثم أردف بحرار :

— وهذا ما يجعل « هذه » الدنيا نقية طاهرة !

فقال لوبين يساله فى صراحة :

— هل كنت انت ايضا مجرما ؟؟.

فعض جبين على شفته فى اسى ومرارة وقال :

— نعم . كنت أحمق مجنونا ..! نكت أشغل منصبا محترما فى أحد البنوك الكبيرة . واتفق ان اقترضت يوما مبلغا من المال عجزت عن تسديده فسولت لى نفسى ان اختلس من خزانة البنك قدرا أقامر به على ان اظفر بمضاعفته فاسد دينى . ولكنى خسرت . فاختلست مبلغا آخر لحق بسابقه فما كان منى الا أن هجرت عملى وفررت هاربا الى

ليفربول . وقرأت فى الصحف ان رجال البوليس فى أثرى وانهم يبحثون عنى . وفى ذات يوم جاءنى رجل تودد الى وصارحنى بان الطريقة الوحيدة للهرب من البوليس هى ان الوذ بهذا الكهف حتى تهدأ الضجة فأخذت بالمشورة التى القيت الى . وها انذا فى هذا الكهف منذ هذه اللحظة أى منذ ثلاثة عشر عاما !

وانهار صوته وقال فى يأس :

— ثلاثة عشر عاما وانا أعيش فى هذا الجحيم .. ؟ لا أرى الشمس أو النور ..! ثلاثة عشر عاما وانا سجين فى اسوأ السجون ..! وذلك هو قصاص لانى اختلست ثلاثمائة جنيه !

وامسك عن الكلام ونظر الى زوجته برهة ثم استرسل يقول :

— ولقد كانت الحال حقيقة بأن تكون شرا من هذا لولا أن ساق الله الى سالى . فقد التقيت بها عقب انضمامى الى العصبة السرية فاحببتها وانى لأحمد الله على ان ادلتنى هذا الحب فتزوجنا وعشنا سعيدين .. كما يسعد الناس هناك .. فوق ..!

وأشار الىّ سقف الغرفة يعنى بذلك « الدنيا الاخرى » .

وقال مستطردا :

— أليس كذلك يا سالى ..! ألست سعيدة مثلى ؟

وزايلت سالى مقعدها وعبرت الغرفة الى حيث كان

زوجها فقبلت جبينه ووقفت خلفه وجعلت تعبث بأصابعها فى شعره .

وهمست تقول :

— ما أسعدنى بوجودى الى جانبك ايها الحبيب ؟

وتحول جيم الى لوبين ثانية وقال :

— ووجود سالى الى جوارى يشعرنى بالحرية التى تنقصنى ، ولعلك تسألنى الآن عما يزعجنى .؟ ولماذا لا تطيب لى الحياة فى هذا الكهف ولى زوجة تحبنى وابنة متعلقة بى ؟

وتقبضت يداه وقال فى صوت يقبض تأثرا وانفعالا :

— نعم .. ! ان الطبيعة هى التى تنقصنى ..! انى فى حاجة الى الطبيعة وعناصرها المختلفة .. الشمس .. والهواء .. والامطار .. الامطار النقية المنعشة ..! يالله ..! انى لانزل من حياتى عن أعوام واعوام لكى اشعره بمياه المطر وهى تسيل فوق رأسى وتبلل ثيابى ! والرياح ؟ والحقول الخضراء ؟ والورود والازهار ؟ تلك هى الحياة ! قبل أن أهبط الى هذا الكهف لم أكن أقدر الطبيعة كما ينبغى ! وكنت أشعر بأنى لن انزعج اذا ما حرمت من المطر أو الشمس .. اما الآن فاصبحت اعرف لكل هذه العناصر قيمتها التى لا تقدر ! وفى كثير من الاحيان أحلم بالطبيعة .. ارى فى نومى يختا يجرى فوق البحار ..! او ارى عاصفة تهب وتقتلع الاشجار ، فاذا ما أستيقظت من نومى بكيت .. بكيت طويلا بلا حسرة على ما خسرت وفقدت . !

وأخذت جيم بيد سالى وجعل يضغطها فى رفق وحنان واردف يقول :

— وادهى من هذا وابعث على اثارة الحزن اننا رزقنا طفلة ..! كانت مصدر هنائنا ، ولكنها أيضا مصدر شقائنا .. اننا نفكر فى مستقبلها ونتساءل عما اذا كان قد قضى عليها بأن تظل حبيسة فى هذا الكهف مدى الحياة !

فقال لوبين :

— لقد رأيتها ! انها طفلة جميلة !

— نعم طفلة جميلة ! انها ملاك ..! وعندما افكر فى انها ستعيش فى هذا الكهف الى الابد محرومة من رؤية الدنيا اكاد أجن .. يا الهى ايقضى على هذه المسكينة البريئة بأن تعيش هنا أعواما بعد أعوام لا ترى شمسا أو نورا أو مطرا .. ! انها بريئة لم تجن ذنبا ، فلم يقع عليها هذا العذاب الاليم ..! عندما تدور هذه الخواطر فى ذهنى اشعر بأنى وشيك أن افقد الرشد ..!

وانتزعت سالى يدها من بين كفى زوجها ووضعتها على وجهها ، واخذت تبكى وصدرها يعلو وينخفض انفعالا .. وقالت :

جيم .. ! اسكت .. اسكت .. ! بالله عليك لا تطرق هذا الحديث ..!

وتصلبت عضلات وجه المسكين وقال :

— لن اتكلم يا سالى .. لن اتكلم ..! على أن هناك عزاء واحد يخفف وقع هذه الخواطر الجنونية وهو اننا علمناها

أن هذه الكهوف هى الدنيا ..! لم نذكر لها ان هناك دنيا أخرى حتى لا تترعرع وفى قلبها حسرة كتلك التى فى قلب أبويها . أنها لا تعرف حقيقة الدنيا الاخرى ، لم ننكر عنها أن هناك دنيا أخرى ، ولكنها لا تعرف ان هناك اشياء اسمها الشمس أو الامطار أو الازهار ..!

وساد الصمت برهة ثم قال جيم وقد ارتد الى الحديث الاول بعد أن تكلم عن شجونه طويلا :

ـ ولكن لماذا سألتنى عما اذا كنت مجرما ؟

فقال لوبين :

ـ لان أجابتك تجعل من السهل على أن أذكر لك كيف جئت الى هذا الكهف !

فجرى جيم على جبينه براحة يده وقال :

ـ هذا صحيح ..! لقد كدت انسى ..! لقد طغى على الانفعال فنسيت انى لم أسمع قصتك !

وتكلم لوبين قائلا :

ـ انى لص .. ولكنى لست هاربا من البوليس !

ثم أردف يقول :

ـ أو انى لست هاربا الآن على الاقل ..! انى لص بدافع من حب المغامرة ..! انى مولع بأن أتحدى البوليس وقوات

العالم اجمع .. ولا أحب الى نفسى من ان انتصر واهزم سواى ..! وكم يسرنى ان أغتصب خزانة وانا أعلم ان رجال البوليس يطرقون الباب ..! وثق انى لست فى حاجة الى المال .. لانى أوزع الشطر الاكبر مما أسرقه على الفقراء والمستشفيات والجمعيات الخيرية ..!

وحملق جيم فى لوبين وقد اتسعت حدقتاه وقال :

ـ لص ..! وتوزع ما تسرقه على الجمعيات الخيرية والفقراء .. ؟ انك اذن أرسين لوبين ..! وقميصك الاسود!

فابتسم لوبين وقال :

ـ نعم اننى أرسين لوبين .. ولكن ما الذى تعرفه أنت عن لوبين ؟

فابتسم جيم بدوره ونهض واقفا وعبر الغرفة وفتح أحد الابواب المتصلة بها فسمع لوبين انغام موسيقى صادرة من جهاز الراديو ثم صوتا يقول : « هنا محطة الاذاعة الامبراطورية البريطانية » .

وقال جيم :

ـ ان الراديو كما ترى هو حلقة الاتصال بيننا وبين هذه الدنيا الاخرى .. أنه يأتينا بأنبائها واخبارها .

ثم رجع يحمل صحيفة المورننج بوست وهو يقول :

ـ والصحف ترد الينا أيضا وان كانت لا ترد بانتظام . وقد لا يصل الينا الا بعد صدورها بأيام غير قليلة ..

وهكذا عرفت بأمر أرسين لوبين وان امضيت فى هـــذه الكهوف ثلاثة عشر عاما .. اذن فأنت أرســـين لوبين ..! ومع ذلك فقد جئت من تلقاء نفســك الى هـذه الدنيا التى لا يخرج منها من يدخل اليها . فلماذا جئت ؟

وقص لوبين على رب الدار تفاصيل ما حـدث منذ التقى بالسرجنت ماريديث الى حـين اســتفاق من اغمـائه فألفى نفسه فى الكهف .

* * *

أصغى جيم وسالى الى حـديث لوبين دون أن يقاطعاه بكلمة واحدة حتى اذا انتهى من قوله تكلم جيم قائلا :

— فى اية ساعة من ساعات الليل ســقوت على قصـر هايفيلد ..؟

وكان صوته متهدجا من اثر الانفعال ويداه تقبضـــان على مسندى المقعـد فى اهتياج . وقال لوبين يجيبه :

— فى نحو التاسعة يروالنصف مساء .
— مساء ..! اى مساء ..؟
— الليلة .. السبت ..
— الليلة ..!

وانبعث جيم واقفا وقد استخفه الطرب .

— الليلة .. ! الليلة .. ! ان الساعة الآن الحادية عشرة والنصف لقد سمعت منذ قليل دقات الســاعة عندما أدرت جهاز الراديو .. هذا معناه انك لم تحمل الى الكهف ولم تأت عن طريق البوابة .. فالوقت أضيق من أن يتسع لهذا .. لقد مضت ساعتان فقط منذ سطوت على القصر .!

فقالت سالى متسائلة :

— اذن فكيف وجد مسيو ارسين لوبين نفسه ؟

فقاطعها جيم بأن قال فى اهتياج :

— تماما .. هذا هو السؤال الذى يدور فى خاطرى .! اذا كنت لم تحمـــل وتنقـل الى الكهف فلا بد انك سقطت اليه ؟

— من خلال الصخر ..؟

— لا ادرى ..! انى عاجـــز الآن عن التفكير .. ولكن المؤكد انك سقطت من قصر هايفيلد الى الكهف مباشرة .. آه ..! يا الهى ..!

ووثب جيم وجعـــل يرقص فى أرجـاء الغـرفة وقـد استخفه الطرب .

وقالت زوجته تسأله :

— ماذا جرى يا عزيزى ..!
— ألم تفهمنى بعـد يا سالى ..؟ مادام هناك طـــريق

للدخول فلا بد ان هناك طريقا للخروج ..! فاذا استطعنا أن نهتدى الى هـذا الطريق أمكننا أن نرجـع الى الدنيـا مرة اخرى !

ـ الدنيـا ..!

همست سالى بهذه الكلمة فى صوت لا يكاد يسـمع وقد ضمت يديها فى انفعال .

وتحول جيم الى لوبين وقال :

ـ ألست على صـواب فى ظنى هـذا يا لوبين .. الا تشاطرنى هذا الرأى .

ولم يغب عن لوبين ان الزوجين شـديدا الانفعال وانهما وقد ظنا ان هناك طريقا للفـرار ، انقلبا الى الجنـون . ولم يشـأ أن يخيب رجاءهما نعم .. مادام هناك طـريق للدخول فلا بد أن يكون هناك طريق للخروج ..! هـذا صحيح .. ولقد طرات هذه الفكرة ببال لوبين وهـو طريح الى الارض بمجرد أن فتح عينيه . ولكن النظـرة العاجلة التى القاها على سقف الكهف وجـدرانه جعلته يقنط من الاهتداء الى منفـذ سرى . ومـع ذلك فقد يسـفر البحث الدقيق عن الاهتداء الى هذا المنفـذ .. كما انه قد لا يسفر عن شىء .

ولم يجسر لوبين على مصارحة الزوجين بما يساوره من

شكوك ووسـاوس . اذ لم يطاوعه قلبـه على أن يحطم آمالهما بمثل هذه القسوة ولكنه قال أخيرا :

ـ لست متاكدا مما اذا كنت أشاطرك هذا الرأى أم لا ؟

فدار اليه جيم وقال وقد قطب جبينه :

ـ ماذا تعنى .. ؟

ثم صرخ فى صوت حاد :

ـ لابد ان هناك طريقا للخروج .. ! ما دمت قد دخلت فلابد انك تستطيع ان تخرج .. !

ـ هذا صحيح .. ولكنى لم أر طريق الخروج يا ميلر ! ولو انى اهتديت اليه لكنت الان فى الدنيـا الاخـرى ولمـا رأيتنى فى دارك اتحدث الى زوجتك .. وعندما جئت الى بيتك انمـا كنت ابحث عن طريق الخروج .. !

وادرك جيم حقيقة الموقف .. وخبت النار المتقدة التى كانت تلتمع فى عينيه . وتهالك على أحـد المقاعد يائسـا ثم غمغم فى صوت محزون :

ـ يا لى من مجنون .. ! نعم .. كان ينبغى أن ادرك أن الفرار ليس سهلا الى هذا الحد .. ! ومع ذلك .. ومع ذلك فكيف دخلت الى الكهف .. ؟

وقال ارسين لوبين :

ـ اكمغ الى .. انى لم أقل ان ليس هناك طريق للفرار ،

ولكنى اردت أن اقول ان الاهتداء اليه ليس بالامر الهين . فهل فهمت .. ؟

فهز جيم رأسه فى يأس وقال :

— كلا ..

فقالت سالى مقاطعة :

— اما أنا فقد فهمت .. انصت الى يا جيم .. يخيل الى انى فهمت ما يرمى اليه أرسين لوبين .. انه يعلم اننا متلهفون الى النجاة والفرار .. وان الانفعال قد يفقدنا الصواب فنرتكب حماقة تودى بنا . فهو يريد منا ان نأخذ أنفسنا بالتريث والصبر . والا أحدق بنا الخطر .. !

— الخطر .. بل قولى الموت .. انسيت ما نزل بسميث ؟

فارتعدت المرأة المسكينة رعبا وقالت :

— ومن أجل هذا يجب يا عزيزى أن نسيطر على اعصابنا .. يجب ان نعمل فى هدوء وأناة .. أليس هذا هو ما ترمى اليه يا لوبين .. ؟

— نعم .

فتنفس جيم الصعداء وتحول الى لوبين قائلا :

— أفى نيتك أن تحاول الفرار من هذا الكهف يا لوبين ؟

— طبعا ..

— وهل تسمح لنا بأن نصحبك ؟

— بكل تأكيد مادمت مستعدا لاحتمال عواقب الفرار ؟

— ماذا تعنى ..؟

— ان للبوليس ذاكرة قوية لم تضعفها الثلاث عشرة سنة

فهز جيم كتفيه بلا احتفال وقال :

— فليكن ..! انى لا ابالى السجن فى سبيل سالى وجراسى . فى سبيلهما لن اضن بحريتى ..! ألست هنا سجينا ..!

وكانت فى صوته نبرة شجاعة أعجبت لوبين .. نعم .. ان فى وسعه أن يعتمد على هذا الرجل ويركن الى مساعدته . فهو على رغم انفعاله رجل متزن الاعصاب ثابت العزم .

وبعد سكته قصيرة قال لوبين :

— وهل اضواء الكهف تظل طيلة الليل ؟

— الليل ..؟ وهل يفرق المرء هنا بين الليل والنهار . ؟ ان الحياة كلها عندنا ليل متصل لا نهار فيه ..! والاضواء مشعلة دائما .. لا تطفأ لحظة واحدة . فرجال مجلس الادارة يخشون أن اطفئت الانوار ان يحدث هياج بين أهل الكهف ويبيتون المؤمرات للفرار .

— والحراس ..؟ أيطوفون بالبيوت فى مواعيد محددة !

— كلا .. انهم يأتون أو ينصرفون حين يطيب لهم القدوم أو الانصراف . والاحكام العرفية تعلن دائما اذا ما انتصف الليل . ونذير ذلك صفير طويل حاد .. فاذا ما سمعنا هذا الصفير عرفنا أن الليل قد انتصف . ولدى الحراس أوامر صارمة تقضى عليهم باطلاق النار على كل من يرونه خارج الدور عند انتصاف الليل حتى الصباح أى حتى نسمع الصفير الطويل مرة اخرى .

وهز لوبين رأسه وقال :

— والآن قد أوشك الليل ان ينتصف ؟

— نعم .

— واذا رآك الحراس خارج البيت الآن اطلقوا عليك النار ؟

— نعم .

— اذن يجب أن تلزم دارك يا جيم فلا ترافقنى .

— ماذا تعنى ..؟

— أن لك زوجة وطفلة فعليك أن تفكر فيهما . الزم الدار ريثما أقوم أنا بفحص الكهف .

فضحك جيم ضحكة مرة وقال :

— ما عساك تظن بى يا لوبين .. ؟ اتحسبنى جبانا ؟

أن سالى نفسها لا يمكن ان ترتضى بقائى فى الدار وأنت فى الكهف تبحث عن المخرج مستهدفا للخطر .

وكانت سالى ممتقعة اللون ولكنها بادية الشجاعة وقالت وهى ممسكة بذراع جيم :

— ان زوجى على حق فيما يقول ..! وفضلا عن ذلك فقد تكون فى حاجة الى معونته . فسقف الكهف مرتفع وقد تحتاج الى من يحملك فوق كتفيه حتى يتسنى لك فحصه .

وجعل لوبين ينقل بصره بين الرجل وزوجته .. ماذا .. أيسمح له بمرافقته ، فاذا أطلق عليه الحراس النار ، كان هو المسؤول عن هذه النكبة أمام ضميره ..؟ ولكنه رأى فى وجهى الزوجين شجاعة وعزما فقال :

— حسنا . فليكن .. سنذهب معا . فهل أنت على استعداد ؟

ونهض جيم واقفا وقال فى بساطة :

— انى لعلى تمام الاستعداد ..!

ومد لوبين يده فصافح جيم الباسل الشجاع .

ودون أن ينطق جيم بكلمة واحدة . عبر الغرفة وفتح الباب وخرج الى الطريق . دون أن يدير رأسه الى لوبين أو الى سالى حتى لا يريا العبرات التى اغرورقت بها عيناه ..!

الفصل الخامس

وقف الرجلان برهة عند الباب جامدين لا يتحركان ولا يتكلمان وقد أرهفا الاذن للسمع .. ولكنهما لم يسمعا الكهوف ترجع اى عيدة فأدركا ان أقرب الحراس اليهما على مسافة عيدة .

وفجأة دوى صفير شديد عكر صفو السكون فاستدار جيم الى صاحبه وهمس يقول فى صوت لا يكاد يسمع :

— نصف الليل ..!

— اذن فقد أعلنت الاحكام العرفية منذ هذه اللحظة . وحق الموت على من يرى خارج داره .

وقال لوبين همسا :

— لقد مر الحراس بدارك منذ أقل من ساعة فمتى يحتمل أن يعودوا ..؟

— لا ادرى .. ربما بعد خمس دقائق وربما بعد ساعتين .. ليس لطوافهما موعد معين ولا سبيل لنا الا وقاية أنفسنا من المفاجأة .. ولكن اذا حالفنا الحظ ..!

وهز جيم كتفيه هزة اليأس .

— أمسدسك معك ..!

— نعم .. ولكن دوى الرصاص كفيل بالضرر بدلا من النفع فان أضأل الاصوات يسمع فى هذه الكهوف على مسافة بعيدة ..

— اذن فلا مفر لنا من الركون الى الحظ وحده .

وسار لوبين امام صاحبه وهذا فى أثره . وقد علمته سنوات التجارب ان لا يكون لخطوة وقع مسموع . على نقيض جيم الذى كان حذاؤه يحتك بالارض وان لم يرسل الا صوتا خفيفا .

ودار الرجلان حول المنعطف الاخير وقد خلف وراءهما آخر مصباح كهربائى من تلك المصابيح المثبتة فى السقوف فلم يكن هناك مصباح يضىء العشرين ياردة الممتدة أمامهما وانما كان الضوء يصل اليها من المصباح الخلفى بما يكفى لانارتها انارة تبدد الظلام بعض التبديد .

وأدرك لوبين ان جيم لم يكن كاذبا حين تحدث عن الاخطار التى تتهددهما . فالكهوف مضاءة ومكشوفة أمام البصر فلو أن أحد الحراس حضر الآن فجأة لاستحال عليهما الاختباء ولكن فى ذلك موتهما المحقق . فمن الخير اذن أن يعودوا الى الدار بأسرع ما يمكن .

وانتهى الرجلان أخيرا الى أقصى الكهف الى حيث وجد لوبين نفسه عندما افاق من اغمائه .

وأخذ لوبين يفحص الجدارن .. فحصها مرة بعد مرة دون أن يقع على شىء يبشر بالرجاء .. وللمرة الثالثة فحص الجدران .. هذا غريب ..! اذا لم تكن الظواهر خداعة فلا بد أنه وصل الى هذا المكان محمولا .. لا يمكن

ان يكون قد سقط اليه من منفذ سرى . ان الصخور صماء .. ان سطحها حقيقة غير أملس وفيه شقوق وثنيات كثيرة . ولكنها كلها طبيعية لا تخفى جهازا اذا ضغط أو جذب انشق الجدار وانفتحت فيه فجوة للمرور .

على ان التجارب قد علمت لوبين لا يركن فقط الى ما تراه العيون . وان عليه ان يستعمل يديه ايضا . فاشار الى جيم يستدنيه منه وهمس فى اذنه يدعوه الى فحص الجدران والارضية بجسها والدق عليها دقا خفيفا فقد يصدر منها صوت أجوف يدل على ان وراءها فراغا .

واختص كل منهما بمنطقة يوالى فحصها .

ومرت عشرون دقيقة والرجلان يفحصان ويدقان على الصخور . والصوت الذى يصدر منها أصمهم مكتوم . واخيرا وقد فحصا كل شبر فى الارضية والجدران وقف الرجلان يتبادلان نظرة صامتة . وكان جيم بادى اليأس . على نقيض لوبين الذى لم يكن يتوقع غير هذه النتيجة .

— وقال لوبين : أيمكنك ان تحملنى على كتفيك ..؟

فأحنى جيم جيم راسه . فقال لوبين :

— اذن أفسح ما بين قدميك .

وانحنى جيم فوثب لوبين الى كتفيه وجلس . ثم اعتدل جيم وأخذ لوبين يقف مستندا الى الجدار حتى استطاع أن يبلغ السقف .

وبينما كان لوبين منهمكا فى فحص قطعة كبيرة من الصخر ناتئة فى السقف همس جيم يقول : لوبين ؟

— نعم .

— انصت ؟

وأحنى لوبين راسه واخرجها من بين فجوات الصخر فسمع ما أفزع جيم . سمع وقع أقدام تقترب مصحوبة بأصوات تتحدث .

— انزلنى اذن ..!

وخفض جيم راسه ووثب لوبين الى الارض . وعندما نظر الى عينى جيم رأى فيهما بريق اليأس والقنوط . وقد انعقدت على جبينه قطرات العرق . وتحركت شفتا جيم ولكنه لم يقل شيئا . فعرف لوبين انه يصلى تهيؤا لاستقبال الموت الذى لا مناص منه .

وقال لوبين فى هدوء :

— اعطنى مسدسك .

وهز جيم كتفيه وناوله المسدس .

— والآن ارفع ياقة جاكتتك حتى تغطى عنقك البيضاء وانطرح على الارض ووجهك الى الجدار . واياك ان تتحرك من مكانك الا اذا سمعت طلقا ناريا . وعندئذ يمكنك ان تنهض وتركض هاربا الى دارك وقل انك لم تر

شيئا ..! وانك لم تسمع سوى الطلقات النارية فاستيقظت من نومك منزعجا ..!

– ولكن انت ..؟

– لا شأن بى الآن ..!

وفك لوبين ازرار قميصه واخرج القناع الاسود من جيب فى المنطقة المشدودة حول وسطه فثبته الى وجهه ولبس القفاز الاسود فاستحال بذلك شبحا أسود اللون من رأسه الى قدمه . ثم تراجع الى الخلف وانزوى فى ركن من الكهف لا يصل اليه من الضوء الا قبس ضئيل .

وكان وقع الاقدام قد اخذ يعلو ويشتد اذ ذاك . واستطاع لوبين أن يميز بعض كلمات الحديث الذى يدور بين الحارسين .. وكانا يتكلمان عن فتاة تدعى ايما .

وأشار لوبين الى ركن مظلم من الكهف فسار اليه جيم وانطرح على الارض ووجهه الى الجدار ملتصقا به كما امر لوبين . ولما اطمأن لوبين الى ان مساعده احسن اداء تعليماته انطرح بدوره على الارض ولكنه لم يجعل وجهه الى الجدار وانما جعله الى المنحنى الذى سيأتى الحارسان من خلفه ووضع المسدس على الارض أمامه .

وكان الرجاء ضعيفا فى ان لا يراهما الحارسان . فعندما يظهران من وراء المنحنى سيكون بصرهما فى

الغالب متجها الى الجدار .. أى الى حيث يرقد جيم ولوبين على مسافة عشرين ياردة . على ان من المحتمل ايضا ان لا يتجاوز بصرهما الياردات القليلة الواقعة تحت عيونهما فلا تمتد على طول العشرين ياردة كلها .. وانه لأمل ضعيف . ولكن لوبين كان فى مركز دقيق يحمله على ان يتعلق بأوهى الامال على انه مع هذا كان متأهبا لأية مفاجأة تحدث .. فهذا هو المسدس أمامه على الارض فاذا ما فطن الحارسان الى الامر فما عليه الا أن يطلق عليهما النار . وفى خلال ذلك سيتمكن جيم من بلوغ داره .. أما لوبين فسيذهب فريسة البنادق السريعة الطلقات قبل أن يتمكن من الفتك بالحارسين . ومع ذلك فحسبه من الامر أنه سينقذ حياة جيم وأن برده الى زوجته وأبنته ولو ضحى فى سبيل ذلك بنفسه .

وصارت أصوات الحارسين أكثر وضوحا . وتجلى حديثهما فى السمع :

– اعلم يا جورج انى أعرف عما اتحدث .. نعم . ان ايما لن تتزوج هارى الاعور .. انها ستتزوج ذلك الشاب الذى يقيم فى شارع ليشستر . انه يدعى بيل فيما اذكر .

فضحك الحارس الثانى ضحكة عالية وقال :

– بيل تارلنج ..! انك مغفل يا صديقى ..! ان ايما لن تتزوج بيل تارلنج ولو نقدها الف جنيه . لقد صارحت زوجتى بنيتها هذه ..! او هذا على الاقل هو ما فهمته زوجتى من حديثها .

فضحك الحارس الاول وقال :

- لقد ارادت اذن ان تضللها عن الحقيقة .. انى واثق من انها ستقترن ببيل .. الم ترهما يتنزهان معا كل يوم تقريبا ؟.

- واى شيء فى هذا .. ؟ كم من فتاة تبيح لرجل أن يقبلها بينما تنوى ان تتزوج سواه .

وتهيأ لوبين للعمل وقد عرف من وضوح الصوت انهما يوشكان أن يظهرا من وراء المنحنى . وان الامر لا يعدو ثوانى معدودات .

ولكن لوبين أخطأ التقدير . لقد وقف الحارسان وراء المنحنى وقد احتدم بينهما النقاش .

وقال أحدهما فى لهجة تنم على الغضب :

- قلت لك أن ايما ستتزوج بيل تارلنج ..!

وقال جورج :

- وأنا أقول لك انها ستتزوج هارى الاعور ..!

- انى واثق مما أقول ايها المغفل الغبى ..! ان ايما نفسها هى التى كاشفتنى بنيتها .

- حقا ..! وما شأن ايما بك حتى تكاشفك بأسرارها أيها العجوز ؟ هل أصبحت وصيا عليها ..؟

واستمر الرجلان يتجادلان فى الامر وكل منهما مصر على ان ايما ستتزوج الرجل الذى يذكره . وطال الحوار واشتد .. ولوبين وجيم يصغيان الى هذا الحديث وقد نفد صبرهما .. وكان لوبين يعلم ان الموقف لا يطاق .. بالنسبة الى جيم على الاقل .. وان طول الانتظار أمض أعصابه بلا نزاع . فاذا لم يكن بد من الموت فليأت عاجلا بدلا من هذا الارهاق الذى يحطم الاعصاب . وكان اكبر ما يخشاه لوبين ان يفقد جيم الصبر فتبدر منه حركة تفسد الموقف وتكشف امرهما للحارسين .

وامتد الحديث بين الرجلين خمس دقائق . وانتهى الامر بأن عقدا رهانا الى جنيهين .. هذا يقول انها ستتزوج بيل وذاك انها ستتزوج هارى .

ورأى لوبين ظل يدين تتصافحان وتقسمان على الرهان .. وعلى الاثر بدا حوار جديد يصحبه وقع أقدام الحارسين وقلا واصلا السير .

ولكن الواقع اخذ يتلفت .! لقد ابتعد الحارسان .!

* * *

لم ينتصب لوبين واقفا الا حين لم يعد يسمع صوت الحارسين وهمس ينادى صاحبه .. فتنفس جيم الصعداء وتنهد فى صوت مسموع ونهض بدوره وهو يلعق شفتيه الجافتين .

وتمتم جيم يقول :

— شكرا لله .! لقد حالفنا الحظ .! لقد ظننت ان الموت لا مفر منه .! الا شكرا لايما .! فلولاها لكنا الآن جثتين هامدتين .!

ونزع لوبين قفازه وقناعه ، ووقف ثانية فوق كتفى جيم ومضى يفحص السقف فى المنطقة التى تظل المكان الذى وجد نفسه فيه عندما استفاق . واخيرا طلب الى صاحبه أن ينزله .

وقال جيم وعيناه تنطقان بالشماتة :

— هذا ما كنت اعتقد .! ان الخروج من هذا السجن الابدى مستحيل .!

ورثى لوبين لحاله ، ولكنه لزم الصمت ولم يقل شيئا .! وعادا ادراجهما الى البيت .

وكانت سالى فى انتظارهما عند الباب .. وكان وجهها ينم عن الارتياح والرجاء ، وحين رأتهما مقبلين تعلقت بذراع زوجها كأنما لا تنوى ان تدعه يقوم بهذه المغامرة مرة اخرى .. وهتفت :

— جيم .؟ حبيبى جيم .! لقد كدت افقد الوعى عندما رأيت الحارسين يتقدمان الى حيث ذهبتما ، وبت أتوقع أن اسمع دوى الرصاص ما بين لحظة واخرى ، ولكن خبرنى .. ما الذى حدث .؟ وكيف نجوتما .؟

— نجونا لانهما لم يتجاوزا المنحنى الاخير .!

— شكرا لله .! وماذا وجدتما .؟ هل اهتديتما الى المنفذ السرى ، وأسرع يخبرنى .. فان صبرى نفذ .!

ولم يجيبها زوجها على سؤالها ، فكان لها من صمته أبلغ الجواب ، وهتفت تقول :

— اذن فلا مهرب لنا .!

— نعم .. لا مهرب .!

وأرسل جيم الى سقف الغرفة نظرة جامدة صخرية ..

وهمست المسكينة تقول :

— اذن فسنقضى بقية العمر هنا .! لقد كنت أرجو ان . أوه .! يا الهى .! هنا مدى الحياة .! وانت ايضا يا لوبين قضى عليك بأن تعيش معنا حتى الابد .. لا مهرب لنا .!

ولبث لوبين صامتا لا يتكلم .. لم يكن فى وسعه ان يصدق ما يرى ، كيف هذا .؟ أقضى عليه حقا ان يعيش مدى حياته فى هذه الكهوف ؟ افى يقظة هو أم فى حلم .؟ نعم .. لم يكن هناك شك فى أنه انتقل من الدنيا الاخرى الى هذه الكهوف .. هذه سالى وجيم والبيت الخشبى وجدران الكهف .. كل هذا دليل على أن حواسه لا تخدعه !

ومع ذلك فهو لم يكن يائسا .! نعم . انه لم يهتد الى المنفذ السرى .. ولم يعثر على الطريق الذى جاء منه الى الكهف .. ولكن هذا ليس معناه أنه سيمضى بقية

العمر سجينا . ! لابد ان يجد مخرجا .. وكل ما فى الامر ان الاهتداء الى المخرج قد يقتضى بعض الوقت ..

لم تكن هذه أول مرة الفى لوبين نفسه سجينا فى مكان ينبغى ان يخرج منه .! وكم ظن خصومه انهم ظفروا به فحبسوه فى كهف أو قبو ليموت جوعا .. ولكنه استطاع الفرار .. فهل ترى يعجز هذه المرة ؟

وانتبه لوبين من هذه الخواطر فجأة على صوت سالى ميلر وهى تتحدث اليه قائلة :

— لماذا تبتسم .؟ كانى بك قد سمعت نبأ سارا بدلا من هذه الانباء المزعجة التى تبعث اليأس .!

— ربما ابتسمت لان الانباء ليست مزعجة الى الحد الذى تتصورين ..!

فنظرت اليه فى استغراب وقالت :

— أمعنى هذا انك تحب أن تمضى حياتك فى هذا الكهف .؟

— كلا بالطبع .. ولكنى افكر فى المثل الذى يقول : « ان هناك الف طريقة وطريقة لقتل الفأر » ، وكذلك هناك الف طريقة وطريقة للفرار من هذا الكهف .. الا يحضر الى هذا الكهف أعضاء جدد من حين لآخر .؟

— طبعا ..

— وكيف يدخلون .؟

— هذا ما لا يدريه أحد غير أعضاء مجلس الادارة .. والقادمون الجدد يعطون مخدرا . فاذا ما أفاقوا ألفوا انفسهم فى الكهف .

— ليس هذا ما أرمى اليه .. لقد حدثتنى يا مس ميلر عن بوابة حديدية وحراس يخفرونها . فهل يأتى القادمون عن طريق هذه البوابة .؟

— نعم . يأتون محمولين على محفات يحملها بعض أعضاء مجلس الادارة .

— أتظل الابواب دائما مغلقة لا تفتح الا عند قدوم هؤلاء .. هؤلاء المهاجرين .؟

— نعم .. وماك بيكلى هو الذى يحتفظ بالمفتاح .

— ومن هو ماك بيكلى .؟

— انه يسمى نفسه رئيس العصبة السرية . والبوليس يبحث عنه لانه قتل شخصين .

— أليس هناك طريق آخر للخروج أو الدخول عدا البوابة .؟

— كلا .

— وكيف اذن يتجدد هواء الكهف .؟ فانه لا يلبث ان يصبح ساما ان بقى على حاله طويلا دون ان يتجدد .؟

— هناك فجوتان لتجديد الهواء احداهما فى ميدان ويموث والاخرى فى ميدان هال . والفجوتان متصلتان طبعا بأنابيب يسرى فيها الهواء النقى . وعلى فوهة كل من الفجوتين قضبان حديدية سميكة تجعل المرور من

بين فرجاتها مستحيلا . فضلا عن ان الحراس يتونون خفارتها اثناء الليل .

— واين يقيم هذا الرجل المدعو ماك بيكلى .؟

فقال جيم متسائلا :

— ولم تسال .؟

فابتسم لوبين وقال مجيبا :

— لانى انوى أن أسطو على داره واسرع المفتاح .!

فقال جيم فى ذعر :

— انك لن تفعل هذا يا لوبين .! وان فعلت فلن تفلح .! وان افلحت فلن تجدى عليك سرقة المفتاح شيئا .؟

— لماذا .؟

فالتفت جيم الى زوجته وقال :

فاحنت المراة راسها وقالت :

— لقد انبأته .! اما ذكرت لك يا لوبين حكاية جرس الانذار والحراس الذين يخفرون البوابة . ؟ لماذا لا تصدقنا عندما نقول لك ان مغادرة هذه الكهوف احد المستحيلات .!

فابتسم لوبين وقال فى هدوء :

— لان ارسين لوبين لا يعرف شيئا يسمى المستحيل . ! كم عدد اهل الكهف . ؟

— خمسمائة شخص تقريبا .

— متى وصل اخر رهط من القادمين الجدد . ؟

— منذ ثلاثة ايام .

— ايمكننى ان اطوف بالكهوف غدا وانا آمن مطمئن . !

ففكر جيم برهة ثم قال :

— لا ادرى . ! قد يظنك الناس احد الجدد .. ولكن اذا ارتاب فيك احد الحراس وساقك الى ماك بيكى ..

وتاوه جيم وقال فى مرارة :

— ان بيكلى وحش على صورة انسان .. ان القتل عنده اهون عقاب .

— اتعتقد انه سيقتلنى اذا كشف امرى . ؟

— بلا نزاع .. وسيقتلك بمسدسه . !

— اذن فالموت هو النهاية المحتومة ان لم تقع معجزة من المعجزات وما دام الامر كذلك فالرأى عندى ان الاستهداف للخطر فى سبيل المفتاح هو خير الحلول . ! فقد اظفر بالمفتاح وقد تتم النجاة . !

وقال جيم فى تلعثم :

— ولكن ينبغى أن .. ينبغى أن ..

وامسك عن الكلام وادار راسه الى ناحية الجدار فى يأس .

وابتسم لوبين . عرف ان جيم اراد أن ينصحه بالحذر ولكن ما جدوى الحذر ما دام لا مفر من الموت . !

وقال لوبين :

— انى ازيد ان تسدى الى خدمة كبيرة . ؟

— انى رهن اشارتك ما دام الامر فى وسعى .

— اسمح لى بأن ابيت الليلة فى دارك .. على هذه

الاريكة .

— طبعا .. ولكن فى الغد .

فقاطعه لوبين فى هدوء :

— فى الغد سأكون قد ظفرت بالمفتاح .

وابتسم ابتسامة المطمئن الواثق .

الفصل السادس

نام لوبين نوما عميقا ولم يستيقظ الا حين رأى شبحا يدخل الغرفة والنور الكهربائى يغمر المكان .

وكان جيم بادى الاضطراب وقد لاح عليه انه امضى ليلته ساهرا لا يغمض له جفن .

وقال جيم يخاطب ضيفه :

— هل نمت جيدا يا لوبين . ؟

— انى لم استيقظ الا فى هذه اللحظة .

فهز المسكين رأسه فى أسى وقال :

— انى وسالى لم نذق للنوم طعما .

— أكنتما تفكران فى مصيرى ؟

— نعم . فلو ان أمرك اكتشف لما كان لك رجاء فى النجاة .

— ولم تزعجان قفسيكما لاجلى . ! اننا لم نتقابل الا منذ بضع ساعات فكرا فى كما تفكران فى سفينة تمر بالميناء مرورا سريعا ثم تتابع رحلتها الى حيث تشاء الاقدار .

فهز جيم رأسه وقال :

— اتحسب الامر سهلا الى هذا الحد يا لوبين . ؟ لا اريد ان اكون رجلا ينساق مع العاطفة . ولكن لك أن تصدقنى

اذا قلت ان قدومك الى الكهف كان بمثابة انبثاق قبس من اشعة الشمس فى هذه الظلمات . عندما رأيتك خيل الى انى رأيت معك الشمس والنور والمطر والحقول الخضراء . انك تعرف اننا نعيش هنا فى عزلة تامة لا اصدقاء لنا وليس بين اهل الكهف من تطيب لنا مصادقته . انهم جميعا من المجرمين المعتادى الاجرام . !

وابتسم لوبين ابتسامة خفيفة فادرك جيم ما يجول فى خاطره وقال معتذرا فى لهجة تدل على الاخلاص :

— اننى آسف جدا يا لوبين . ! لقد نسيت . ! ولكنك لست من طرازهم . انك لست مجرما عائدا من هذا الطراز . وفضلا عن هذا فانا أيضا من الناحية القانونية ينبغى ان اسلك فى عداد المجرمين ولكنى لا اعتبر نفسى مجرما . هناك جرائم يقدم عليها المرء عفوا دون ان تكون نزعات الاجرام كامنة فى نفسه وكذلك كان شأنى . ما اختلست الا طمعا فى الربح . وانت ايضا لا تسرق الا ولعا بالمغامرة ورغبة فى الانتقام من الاغنياء الذين يكنزون المال وينسون الفقراء انك لا تسرق الا لتوزع ما سرقت على المحتاجين والجمعيات الخيرية . فأنت عندى صاحب مبدأ ولست لصا . ! من هذا تستطيع ان تدرك انى اعف عن مخالطة اهل الكهف .

وفى هذه اللحظة دخلت سالى ودعت الرجلين لتناول الفطور ولما دخل لوين الى الحمام رأى صنبور الماء والى جانبه جهاز كهربائى للتسخين . كما لاحظ أن الحوض متصل بانبوبة الصرف .

— من أين يأتيكم المـاء . ؟

— من مصنع استخراج المـاء بالقرب من النهر .

— مصنع استخراج المـاء .. ! يا الهى .. ! وهـل لديكم أيضا طلمبات لتصريف القاذورات والمياه القذرة .. ؟

— نعم .. والقاذورات تفرغ فى النهـر . وسـترى كـل شىء بنفسك عندما اطوف بك الكهوف الان .

فقال لوبين : تطوف بى .. ! ماذا تعنى .. ؟

— اليوم الاحد .. يوم العطلة فى الكهف فليس لدى عمل يشغلنى .

— عمل .. ! وهل يشتغل أهل الكهف .. ؟

— طبعا .. انهم مرغمون على العمل رضوا ام كرهوا .. وكثيرون من أهل الكهف يمقتون العمـل ويؤثرون عليـه السجن ولكن لا حيلة لهم فى الامر .. لا مفر عنـدهم من الاذعان .

— وفى أى شىء يشتغلون .. !

— لكل منا عمله الخاص . فأنا مثلا اشتغل كاتبـا فى مكتب الرئيس .. لقد عهدوا الى بان اتولى جمع الايجـارات اذا كنت كاتبا فى البنك .

ولمـا راى جيم امارات الاستغراب على وجه لوبين ضحك وقال :

— اننا ندفع ايجـارات عن هـذه الدور كاننا نعيش فى الدنيا الاخرى .. !

— والى من تدفعونها . ؟

— الى أعضاء مجلس الادارة .

— وهل تتناول اجرا عن عملك .. ؟ — نعم

واخرج من جيبـه حفنـة من النقود ناولهـا الى لوبين ففحصها فى اسـتغراب فالفاها قطعـا نحاسـية مختلفـة الاحجام . وعلى وجه منها نقش معول وسندان حولهمـا هذه الكلمات : « مجلس ادارة العصبة السرية » .

وعلى الوجه الاخر رقم ١ أو الرقم ٥ أو ١٠ أو الرقـم ١٠٠ حسب حجم القطعة النقدية .

وقال جيم مستطردا :

— القطعة الصغرى التى تمثل وحدة واحدة تسـمى بنسـا أما القطع الاخرى فتسمى على التوالى : خمسة أو عشرة أو مائة . والبنس من هذه القطع يعـادل تقريبـا البنس الانجليزى . اما الخمسة بنسات من نقود الكهف فتعـادل نصف شلن وهكذا .

— والمعول والسندان .. ؟

— شعار العصبة .. لان شؤون الكهف تدار على أساس المبادىء الشيوعية . فكل ذكر تجاوزت سنة الرابعة عشرة لابد ان يدعى الى العمل .. وجميع الذكور يتناولون اجـرا واحدا أعنى خمسمائة بنس فى الاسبوع .. اما ايجـارات المنـازل فتختلف تبعا لمساحتها . وارخص منزل يؤجـر بمائة بنس فى الاسبوع واكبر الدور ايجارها مائة وخمسـة وسبعون بنسا . وايجار منزلى هذا مائة وخمسة وعشرون .. والاناث اللائى تجاوزن الرابعة عشرة مرغمـات على العمل ايضا . وتتقاضى المرأة مائتين وخمسـين بنسـا فى الاسبوع . والنساء المتزوجات لا يعفين من العمـل ولكن

يباح لهن ان يعملن داخل مساكنهن على حساب القطعة ، فتنال المرأة المتزوجة أجرا يتناسب مع ما انجزت . ولكن محرم عليها مهما كانت الظروف ان تنجز من العمل ما يقدر عنه اجر يقل عن الخمسين بنسا . ينبغى ان تكسب على الاقل خمسين بنسا فى الاسبوع .. ان زوجتى تشتغل فى التطريز وهى تربح فى الاسبوع اكثر من مائة بنس .

وقال لوبين يسأله :

— والى من تبيع مسز ميلر ما تطرزه .. ؟

— الى مجلس الادارة .. لقد اختص المجلس نفسه بحق شراء ما يصنع فى الكهوف . فاذا ما استولوا عليه باعوه فى الدنيا الاخرى ولا شك انهم يربحون عشرات الالوف من الجنيهات .. بل مئات الالوف .. ولا عجب فى هذا . فهم يشترون ما يصنع بابخس الاثمان . بنقود من النحاس . من صنع مجلس الادارة نفسه . ! اى انهم يبتاعونها بالمجان ! ! والمواد الخام مسروقة فى الغالب ..

فابتسم لوبين وقال :

— اذن فالثمن الذى يبيعون به المنتجات فى الدنيا يمكن ان يعد كله ربحا . !

— هو ذاك .. انهم يستغلون اهل الكهف استغلالا شنيعا .

* * *

تناول لوبين وجيم وسالى وجراسى الطعام معا .. وقد جهزته ربة الدار على فرن كهربائى ارته لارسين لوبين وهى تقول :

— ان الكهرباء هى عماد الحياة فى هذه الكهوف . ! انها الوسيلة الوحيدة للاضاءة والتدفئة . فليس فى الكهف غازا أو بترول او قناديل . وليس هناك كبريت ايضا . والمدخنون من الرجال يشعلون سجائرهم بالمشاعل الكهربائية ! .

— خشية النار ؟

— نعم .. فلو شب حريق فى الكهوف وبيوتها من خشب لاتى عليها جميعا فى ساعة واحدة .. ولمات اختناقا بالدخان من ينجو من النار .

ولما فرغوا من طعام الفطور حاول لوبين فى غير جدوى ان يثنى جيم عن مرافقته حتى لا يرى واسرته فى رفقة رجل تحوم حوله الشبهات تفاديا من انزال الاذى بالاسرة اذا ما انكشف امر هذا الدخيل .. لكن جيم اصر على الخروج معه قائلا انه اعتاد ان يتجول فى الكهوف يوم الاحد من كل اسبوع . فضلا من ان سير لوبين وحده قد يضعه موضعا مريبا .. اما ان شوهد وفى صحبته شخص معروف فقد انتفت عنه الشكوك !

واذن لوبين اخيرا امام هذا الاصرار .. فخرجوا جميعا يتجولون ولوبين يرمى من وراء ذلك الى دراسة مواقع الكهوف حتى اذا حانت ساعة الفرار كان على علم تام بالمسالك التى ينبغى ان يتخذها .

ولاحظ لوبين أن الكهوف تمتد عادة على استقامة تامة ثم تتفرع الى كهوف اخرى مستقيمة . وكان مجلس الادارة قد اطلق على هذه الكهوف اسماء بعض الشوارع المعروفة

فى لندن وكانت البيوت الخشبية قائمة على جوانب الكهوف واغلبها مماثل لبيت جيم .

ولما بلغوا شارع سوثمبتون رأى فيه لوبين نفرا من الناس اغلبهم من النساء وقد جلسن على مقاعد عند الابواب يطرزن أو يحكن الثياب وهن يتبادلن الحديث بعضهن مع بعض ..

وكان هناك ايضا عدد قليل من الرجال يدخنون فى صمت وكذلك رأى طفلين أو ثلاثة .

استغرب لوبين ان تنتظم البيوت هذه الشوارع على تقيض شارع بريتون اذ ليس فيه الا بيت واحد هو الذى يقطنه جيم فلما كاشفه باستغرابه قال جيم مفسرا :

— هذا مرجعه حظى السعيد .. ان المجرمين العائدين قوم ينفرون من كل من لم يكن على شاكلتهم . فلما تزوجت سالى اتخذت هذا البيت لاقامتنا ، فنفر المجرمون من الحى بأكمله ولم يشأ احد منهم ان يبتنى له منزلا هناك . والواقع ان اهل الكهف لا يميلون الى أو الى زوجتى . ولولا ان بيكلى فى حاجة الى لاننى الوحيد الذى يحذق بالحسابات لقضى علينا بالموت منذ أمد طويل .

وظلوا يسيرون حتى انتهوا الى كهف كبير لا يقل طوله عن اربعمائة ياردة وقد تفرعت منه ستة كهوف صغيرة بدت على جانبيه كانها البراميل . وقد قامت على جانبى الكهف الكبير بيوت من الخشب شيدت تحتها حوانيت للبيع والشراء وفى وسط الكهف رأى لوبين ساحة متسعة صفت فيها المقاعد والموائد وقد انتظم حولها عدد كبير من اهل الكهف

وفوق الموائد اقداح البيرة وزجاجات الخمر . والجرسونات يروحون ويجيئون وقد ارتدوا الازارات البيضاء .

على ان المنظر الذى راقه وفتنه انما كان سقف الكهف .

لم يكن السقف منخفضا شأن سقوف اغلب الكهوف الاخرى وانما كان مرتفعا جدا وقد انتشرت فيه الفجوات والشقوق والنتوء . وكانت المصابيح معلقة فى الاجزاء المنخفضة منه فلا يصل ضوءها الى الاجزاء العليا أو الى داخل الشقوق . فبدا السقف مجموعة غريبة من النور والظل .

— هذا هو ميدان مانشستر وهو كما ترى سوق البيع والشراء ولدينا هنا كل نوع من انواع الحوانيت : القصاب والخباز والبقال .. الخ .. وجميع البضائع ملك لمجلس الادارة . اما الباعة فيتناولون اجرا ثابتا .. اتذكر قائلا يدعى لامبورت يبحث عنه البوليس منذ سنوات لقتله فتاة فى بارنجتون ؟ انه هو الذى يتولى ادارة حانة البيرة . ولكنه — على رغم الارباح الجسيمة — لا يتقاضى الا الخمسمائة بنس المعهودة .

— ومساعدوه ؟ — يتقاضون خمسمائة بنس ايضا .

— اذن كيف يبسط عليهم سلطته ما داموا جميعا متساوين . ؟ هبهم ابوا ان يطيعوا اوامره ؟

— لقد احتاط مجلس الادارة لهذا الامر . فالعصيان عقوبته الغرامة وهى تخصم من الاجور الاسبوعية حتى تستوفى كلها . فاذا ما توالى العصيان توالت الغرامات فيفضى الامر اخيرا الى الموت جوعا ! ولهذا لا يفكر حد

فى مخالفة أمر يصدر اليه . فهز لوبين رأسه وقال :

ـ هذه حال من الاستبداد لا نطاق !

ـ ليس هناك شىء من الاستبداد فيما اعتقد فقبل ان يقضى بالغرامة يدرس مجلس الادارة الامر ، فان وجد الرئيس محقا حكم على المرؤوس والا صدر الحكم ضد الرئيس ان ظهر ان الامر الذى اصدره كان جائزا .

وكان لوبين يفكر طيلة الوقت فيما ترى عيناه . من يمكن ان يصدق ان فى باطن الارض دنيا اخرى شبيهة بالدنيا التى فوق الارض ؟

وتحول لوبين فجأة الى جيم وقال :

ـ خبرنى .. اكنت تعتقد عندما جئت الى هذه الكهوف انك ستمضى فيها بقية العمر ؟

ـ كلا .. لقد افهمونى ـ كما افهموا سواى من أهل الكهف ـ ان الامر لن يعدو شهورا أو عاما أو عامين حتى اذا هدات الضجة امكننى ان اعود الى الدنيا . ولكننى ما تجاوزت مدخل الكهف حتى تجلت لى الحقيقة .

ـ اذن لماذا لم يتمرد اهل الكهف .. ؟ لو انهم تامروا وتعاونوا لامكنهم ان يغتصبوا البوابة .

فهز جيم كتفيه وقال فى تهكم :

ـ اهل الكهف يثورون ويتمردون .. انظر اليهم وتصفح وجوههم .. انهم راضون عن حياتهم قانعون بها . واغلبهم ينعمون فى الكهوف بحياة اطيب عندهم من حياتهم خارج الكهوف .. ان الخمسمائة بنس الاسبوعية تسد حاجتهم وتغنيهم عن الاستهداف لاخطار اللصوصية

.. وهم قوم لا يحفلون بالشمس أو النور فما الذى يضيرهم ان بقوا هنا مدى الحياة .

وادار لوبين بصره فى أهل الكهف المنتظمين حول الموائد .. نعم .. لقد صدق جيم .. انهم جميعا راضون قانعون .. اغلبهم من مهربى المخدرات أو القتلة أو مدمنى الخمر .. فهل يسوءهم ان يحرموا من نور الشمس ؟

واسترسل جيم يقول :

ـ ومع ذلك فاغتصاب البوابة مستحيل حتى لو ثار اهل الكهف . ان الحراس جميعا يختارون من القتلة الذين يبحث عنهم البوليس وليس من مصلحة هؤلاء القتلة ان ينكشف امر الكهف ويهرب رجال العصبة السرية . والا سعى البوليس اليهم وارسلهم الى المشنقة فهم ناجون سالمون ما دام الكهف سرا من الاسرار . ولهذا نراهم اشد الناس حرصا على عدم السماح لاحد بالفرار .

واخذوا ينتقلون من شارع الى شارع وكان بعض الناس ينظرون الى لوبين فى استغراب وقد تبينوا من وجهه انه حديث عهد بالكهف اذا لم يؤثر فى لون بشرته بعد الحرمان من نور الشمس .

وانتهى بهم المطاف اخيرا الى كهف كبير ذى ساحة متسعة فقال جيم :

ـ هذا هو ميدان هال .. انظر الى الاعلى الى يمينك تر فوهة الانبوبة المجددة للهواء .

وكان قطر الفوهة لا يقل عن خمسة عشرة قدما وكانت كما قال جيم ـ مزودة بقضبان من الحديد تسدها حتى

يستحيل الفرار منها . وكان نشر هذه القضبان مستحيلا . فهو اولا يستغرق وقتا طويلا . بضع ساعات فضلا عن ان حركة المرور لا تهدأ فى هذا الميدان فلا سبيل الى نشر حركة القضبان والا استهدف المرء لانكشاف أمره .

وكانت الانبوبة مظلمة لا يشع منها قبس من ضوء النهار فرجح لوبين انها ملتوية ذات انحناءات متعددة لا تسمح لضوء النهار الخارجى بالانعكاس الى الداخل .

وكان التيار الهوائى المنبعث من الانبوبة قويا شديدا يكاد يطير ثياب سالى وابنتها .

وانتهوا الى ميدان اخر نعته جيم باسم ميدان لندن وقال وهو يشير الى بيت كبير :

— وهذه هى مكاتب موظفى الرئاسة . انى اشتغل هنا . اما البيوت الصغيرة المنتشرة حول الميدان فهى بيوت الحراس وهذا هو نهر استيكس . نهر الموت كما يسمونه وان كان فى الواقع نهر الحياة بالنسبة الى اهل الكهف فالذين يقذفون بانفسهم فيه يرون فى الموت حياة جديدة .

وارسل لوبين بصره الى حيث اشار جيم فرأى نهرا صغيرا تتصل بطرفيه ماسورتان تغيبان فى باطن الصخور احداهما الى يمين الميدان والاخرى الى يساره .

الفصل السابع

كان للنهر منظر بشع يبعث الرعب فى القلوب .. لم يكن هناك ضوء ينعكس على سطحه فبدا ملظما قاتما فحق عليه اسمه : نهر الموت .. ! وتمتم جيم يقول :

— يمكننا ان نسير هنا دون ان نسترعى الانظار . ولكن

لا تطيل النظر يا لوبين الى اية جهة . تظاهر بانك منهمك فى الحديث .. الى يمينك مصنع المياه .. والآلات التى تسمع دويها انما هى الطلمبات التى تجذب المياه من النهر وتفرغها فى حوض كبير تحت فى الصخر فوق رؤوسنا . لا تنظر الى الأعلى فهناك حارس يحدق فينا النظر .. الحارس الواقف بالقرب من باب الرئيس .. انه لا يرتاب فى شىء طبعا لأنه يعرفنى حق المعرفة .. ولكن من يدرى .. !

ومرة أخرى شعر لوبين بالندم على اشراكه جيم معه وتعريضه واسرته لخطر كان ينبغى ان يكونوا بمنجاة منه .

واسترسل جيم يقول :

— وخزان المياه متصل بأنابيب تمتد حتى الدور المنتشرة فى ارجاء الكهوف .

— وهل يرشح الماء اولا ..

— كلا .. فان مياه النهر فى طريقها الى الكهوف بطبقة معينة من الارض تحتوى على مواد مطهرة تؤدى الى تنقيتها وتطهيرها ولهذا تجد للماء طعما معدنيا قد لا يستطيبه المرء فى أول الامر .

وكانت هناك قنطرة فوق النهر اقيم عندها سياج مرتفع يحول دون وصول الناس الى القنطرة فلا يملك المرء الا ان يكون منها على مسافة خمس اقدام . ولاحظ لوبين ان هناك سياجا آخر يمتد من القنطرة الى الماء ويغوص تحت الماء . فلما تساءل عن السبب فى هذا اجابه جيم بقوله :

— المفروض ان النهر بعد ان يجرى طويلا فى باطن الارض يظهر ثانية على سطحها وقد سمت ان لاحد أعضاء مجلس

الادارة بيتا واراضى شاسعة تقع فيها فوهة النهر عندما يغيب فى الارض . ومجلس الادارة يتخذ من هـذا النهـر وسيلة للنقل لا تكلفهم شيئا وذلك ان التيار منحدر وسريع فى أكثر الاحيان ولذلك يأتون بغرارات من الجلد يملأون نصـفها بمختلف البضائع والمواد ثم يلقون بها الى النهر فيسـوقها التيار معه حتى اذا وصلت الى هذا السياج الذى تراه يغوص فى الماء حجزها وردها فيخرجها الحراس ويفتحون افـواهها المعدنية وينقلون ما فيها من مواد .

وهتف جيم يقول :

— انظر .. ! هـذه شحنة من الخشب جاءت يحملهـا التيار ..!

ونظر لوبين فرأى لوحا من الخشب يبرز من فوهة النهـر وهو ينبثق من باطن الارض ، حتى اذا انتهى اللـوح الى السياج الحديدى رده عن متابعة الانزلاق مع التيار .

وقال جيم :

— تعال بنا نتفرج فان هذه تسلية مباحـة لاهل الكهف ، وهناك كثيرون مثلنا يتفرجون .

وكان هناك ستة رجال عند شاطىء النهر ، على رأسهم حارس مدجج بالسلاح ، وقد تولى احدهم تحـريك اللوح بقضيب من الخشب حتى ادناه من الشاطىء ، فحمله أحد الرجال ووضعه على الارض . وكذلك فعلوا ببقيـة الالواح التى حملها النهر .

وبعد دقائق ظهرت احدى الغرارات التى تحدث عنهـا جيم وكانت مستديرة كالكرة تعلوها فوهة من المعدن ، وبعد

برهة ظهرت غرارة أخرى على مثالها ولكنها كانت صـغيرة الحجم جدا ، وتختلف عن الغـرارة الكبيرة فى انها مطليـة باللون الاحمر .

وهتف جيم :

— انظر .. سترى الآن امرا عجبا ..!

وما فرغ من هذه الكلمات حتى أخـرج الحارس الواقف عند القنطرة صفارته ونفخ فيها ، فسـمع لوبين صـفيرا يجاوبه من ورائه ، ثم برز على الاثر حارسان مسلحان خرجا من دار الرئاسة وسارا الى باب السياج القائم عند القنطرة ، ففتحه احدهما بالمفتاح ووقفا فوق القنطرة حتى اذا وصلت الغرارة الصغيرة الى السياج رفعها الرجل الى الشـاطىء فتلقفها الحارس وسار بها الى دار الرئيس يخفره الحارسان المسلحان .

— الغرارة الصغيرة الحمراء تحتوى جواهر مسـروقة ، ولا يسمح لاحد غير الحرس بحمل هذه الغرارات فيحملونها على الفور الى دار الرئيس حيث تودع خزانة متينة تظـل فيها الى ان يحين أوان تغيير شكلها وارسـالها الى مصنع الحلى فتنزع الجواهر وتركب على حلى اخرى ثم تعاد ثانية الى الدنيا .

وهذه الحراسة المشـددة خشية ان يسرق اهـل الكهف الجواهر ..؟

— نعم .. وان كان لا داعى للتفكير فى سرقتها ما دمنـا نعتقد جميعا ان بقاءنا فى هذه الكهوف سيمتد حتى الموت .

ومضوا بعد ذلك الى ميدان لندن حيث يقع مخرج النهر اذ يغيب ثانية فى باطن الارض . واشار جيم الى ماسـورة

كبيرة متصلة بمخرج النهر وقال :

— وهذه الماسورة هى ماسورة تصريف القاذورات .

— والى اين يمتد النهر بعد خروجه من الكهف ..؟

— لا ادرى ..! من المحتمل جدا انه سيظل يجرى فى باطن الارض حتى يصب مياهه فى البحر .

وانتقلوا الى شارع ليدز فقال جيم :

— وهذا الشارع متصل بميدان برمنجهام الذى يعد فى نظر أعضاء مجلس الادارة أهم هذه الكهوف اذ شيدت فيه المصانع المختلفة . ولست تسمع الآن دويا لان الاحد هو يوم العطلة . — ومن اين تتزودون بالتيار الكهربائى ..؟

— من مصنع فى ميدان برمنجهام ساريه لك الآن .

ولاحظ لوبين ان جميع الدور والمصانع مشيدة بحيث لا يكون هناك فراغ بين جدران الكهف والجزء الخلفى من البيوت . وقال جيم يشرح الامر :

— هذا احتياط لابد منه . فلو خلف الدور فراغا لاستطاع أهل الكهف أن ينتقلوا فى هذا الفراغ خفية دون ان يراهم الحراس . اما الآن وقد انعدم هذا الفراغ فلا مفر لهم من السير فى الطرقات . وقد جعلت الشوارع كما رأيت مستقيمة ومتصلة بالميادين اتصالا رأسيا . وبذلك يستطيع الحارس وهو واقف وسط اى ميدان ان يشرف اشرافا دقيقا على جميع الشوارع المتصلة بهذا الميدان . فاذا حاول أحد الاختباء فلابد أن يختبىء داخل احد المنازل لا خلفها .. ! ولعلك قد ادركت الآن ان وصولك الى دار الرئاسة لسرقة المفتاح شبه مستحيل ..!

وللمرة الاولى شعر لوبين بأن الطريق محفوف بالمصاعب وان العقبات ليست هينة كما كان يتصور . ولكنه مع ذلك كان موقنا من أنه سيهتدى حتما الى وسيلة يصل بها الى الاستيلاء على المفتاح . فكم من مرة استطاع ان يسرق على رغم الحراس القائمين والرقابة المفروضة . فهل ترى ينجح هذه المرة أم يخفق ..!

نعم .. للمرة الاولى اخذ يسائل نفسه عما اذا كان الفشل قد كتب له على يد العصبة السرية ..؟ ما حيلته امام دور ليس خلفها فراغ يختبىء فيه المرء ..؟ ما حيلته امام شوارع تظل مضاءة طول الليل ..؟ ما حيلته امام حراس يمكنهم ان يراقبوا جميع الشوارع المتصلة بميدان ما اذا ما وقفوا فى هذا الميدان .. ! وأخيرا ما حيلته امام البنادق السريعة الطلقات التى يتسلح بها الحراس ..؟

واسترسل جيم يقول :

— وهذا البناء الكبير الذى تراه امامك هو مصنع الجواهر .. وفيه الماسات التى اختفت من العالم . فمنذ أسبوع وصلت الى المصنع القلادة الفريدة التى تملكها أو كانت تملكها الليدى آنتج وبعد ذلك بيوم أو يومين وصلت جواهر جريجوف الشهيرة . اما المنزل المجاور له فهو مصنع تزييف النقود الذى يغرق الاسواق بالعملة الاجنبية المزيفة . والى جانبه دار الطبع حيث تطبع الصور والكتب المنافية للاداب وتباع سرا فى جميع انحاء العالم .

واسترسل جيم وقد اشتدت نبرات صوته :

— قلب بصرك فى جميع هذه الدور .. انها موطن الرذيلة

والاثام ، والمجرم اذا امن هجمات البوليس ارتد شـــرا لا يطاق ولم تقف جرائمه عند حد . فهنا موطن الرذيلة التى تكاد تغرق العالم وتكتسحه اكتساحا ..!

وكانت نبرات صوته قد اشتدت وارتفعت الى درجـــة استرعت ابصار المارة من اهل الكهف فقالت زوجته تحذره:

صه يا جيم .. فان الناس يحدجونك بابصارهم .

ـ هذا صحيح .. انى لأرى هذا الكهف .. معقل الاجرام الا فقدت السيطرة على اعصابى . والآن فى وسعنا ان نعود الى الدار على ان نتم طوافنا بعد الظهر بعد ان نفـرغ من تناول الغذاء .

* * *

وكان الطعام شهيا طاب لارسـين لوبين . وقد امضـوا جلوسا الى المائدة ساعة كاملة يتنادرون بالحكايات والنكات وضحكاتهم لا تكاد تسكن لحظة . على ان الشىء الذى كان لا يفتأ يزعج لوبين وينغص عليه هدوءه انما كان عجـزه عن الشعور بحقيقة الوقت..كيف يستطيع ان يصدق ان الوقت قد تجاوز الظهر بساعة او ساعتين على الانوار الكهـربائية لا تزال تضىء الكهف وتغمره بالضوء !؟

ولما فرغوا من الطعام مضت سـالى وابنتها الى المطبـخ تغسلان الصحاف . فالتفت جيم الى لوبين وقال وقد سرى الارتباك الى حديثه :

ـ يجب أن تمضى سحابة هذا النهار معنا يا لوبين ، ولك ان تبيت عندنا كما بت فى الليلة الماضية . اما فى الغد ..

وسكت .. ثم استرسل يقول فى يأس :

ـ يعلم الله ما سوف يصير الى أمرك فى الغد ..!

لو انى كنت على شىء من الشجاعة لسألتك أن تقيم معنا باستمرار . ولكنى افكر فى سـالى وجـراسى واخشى ان ينكشف أمرك فيلحقهما الاذى بسبب وجودك معنا . ولذلك اخشى ان لا يكون فى وسعى ان استضيفك اكثر من الليلة .. انك تعلم مبلغ شقائى اذ أرانى مضـطر الى ان اصـارحك بهذا .. ان عنوان كل قادم جـديد يسجل فى سجل خاص مودع فى مكتب الرئاسة فاذا عرفوا انك تقيم هنـا دون ان يدون اسمك فى السجل وقعت النكبة . وقال لوبين :

ـ انى اعرف يا جيم انى مدين لك بحياتى ، فاذا اذنت لى ان ابيت الليلة فى دارك كان هذا منك فضلا عظيما .. وليس فى نيتى ان أقيم هنا أكثر من هذه الليلة .. انك نعلم انى ..

فقال جيم مقاطعا :

ـ المفتاح ... اتعتقد انك ستنجح ..؟

فقال لوبين فى صوت هادىء :

ـ نعم .. لابد لى ان أسرق المفتاح .. ومن اجل هـذا طلبت منك ان تطوف بى ارجاء الكهف حتى اكون على بينة من مسلكه .

ـ اما زلت مصرا على القيام بهذه المحاولة المستحيلة ..؟ الا تعلم أن الحراس سيغرقونك بسيل من الرصاص قبل ان تقطع نصف الطريق الى دار الرئيس ..!

ـ وهبهم اكتشفوا ان اسمى غير مدون فى السجل فماذا يمكن ان يكون مصيرى ..؟ ـ الموت طبعا .

ـ اذن ما دام الموت هو المصير فى الحالتين . فمن الخـير

اذن ان اسعى الى سرقة المفتاح اذ قد انجح .. لست اجهل انها محاولة محفوفة باشد المخاطر ولكنها قد تسفر عن النجاح . وحتى بفرض انى فشلت فلن اخسر شيئا مادام الموت هو المصير النهائى . وانا بعد رجل لا تطيب له الحياة الا اذا حفلت بالمغامرات .. المغامرات الشائكة ..!

ونطق لوبين بهذه الكلمات فى صوت هادىء ولكنه ينم عن الصلابة وقوة العزم . وارسل جيم بصره الى لوبين وجعل يتفرس فيه .. وللمرة الاولى ادرك ان لوبين هو الرجل الوحيد الذى يستطيع أن يجد وسيلة للفرار من الكهف ..! اذا .. اذا قدر له أن يعيش ..!!

الفصل الثانن

فى تمام الساعة الحادية عشرة والدقيقة الثانية والثلاثين مر حارسان ببيت جيم ميلر فى طريقهما الى نهاية الكهف وبعد ثلاث دقائق مرا ثانية راجعين الى حيث جاءا . وما كادا يختفيان خلف المنعطف الثانى حتى فتح لوبين باب البيت وتسلل الى الطريق .

وكان مرتديا ثياب العمل السوداء وعلى وجهه القناع وفى يديه القفاز حتى ليبدو شبحا من الاشباح .

وتحول الى جيم ميلر الذى كان واقفا على عتبة الدار يرقبه وقال :

— انى ذاهب الآن ..!

— ومد اليه جيم يده يصافحه فى حرارة وهو يقول :

— وداعا يا لوبين .. وارجو لك التوفيق ..!

— اذا حالفنى الحظ فلن يكون الامر بيننا وداعا .. لانى أن أغادر هذه الكهوف وحدى .

وكانت سالى واقفة تستمع الى هذا الحديث فهتفت :

— أوه ..! شكرا لك ..!

واقتربت من لوبين ورفعت وجهها اليه وقبلت جبينه فى انفعال وهى تقول :

— ارجو لك حظا سعيدا . وليحفظك الله .

وقال لوبين يخاطب جيم :

— لا تنسى الحكاية التى لفقناها اذا انكشف امرى فلا تعترف بشىء .. ابق بعيدا عن الحادث !

وسار لوبين مسرعا حتى انتهى الى أول انحناء ج طريقه وقبل أن يتوارى خلفه رفع يده يلوح بها تحية لسالى وزوجها اذ كان يعلم انهما واقفان عند الباب يرقبانه .

وفى تلك اللحظة سمع صوتا شبيها بتنهدة داوية .. أو شهيق مرتفع فرجح أن يكون هذا الصوت ناشئا عن التيار الهوائى المنبعث من فوهة انبوبة التهوية . وأنه لم يسمعه اثناء النهار لان أصوات الناس طغت عليه .

وسار لوبين فى طريقه وميدان ما نشستر منكشف امام بصره دون أن يلقى فى طريقه أية عقبة أو يسمع صوتا يثير ريبته.

وكان فى نيته أن يتجه الى ميدان ما نشستر غن طريق شارع سوثمبتون أو شارع اكستر . ولم يكن يجهل ان هذه المرحلة من أخطر مراحل رحلته فالطريق مكشوفة خلفه وامامه وليس فى وسعه أن يجد ركنا صغيرا يختبىء فيه الا اذا وصل الى الميدان فلو ان أحد الحراس خرج الى الشارع بريتون أما من ميدان أو شارع سوثمبتون لرآه بكل تأكيد ولاستحال عليه حتى أن يرجع ادراجه .

فلم يكن له مفرا ازاء هذا من الجرى ، فما كان منه الا ان انطلق بملء سرعته حتى اذا بلغ الميدان وقف وأصاغ السمع .

وسمع أصواتا ولكنها لم تكن قريبة مقدرة بالخطر . ولاح له أنها صادرة من ميدان مانشستر لا من ميدان سوثمبتون. فارسل بصره الى وراء المنعطف الى الطريق الواقع الى يمينه .

وكانت البيوت قائمة على الجانبين كان يتوقع ان يرى فيه نفرا من الناس يروحون ويغدون مادام الليل لم ينتصف بعد ولكنه الفاه من خاليا المارة وان بدت بعض النوافذ مضيئة .

وسار لوبين فى حذر وقد ثنى جسمه وماد الى الارض حتى يتفادى الانوار المنبعثة من بعض النوافذ حتى اذا بلغ البيت الاول سار لصقه وعيناه مرسلتان فيما حوله خشية ان يقع عليه بصر أحد الحراس وجاوز لوبين البيت الاول وانتهى الى الثانى . واذا كان قد تمنى ان يجد مخبأ فى الفراغ الواقع بين المنزلين فقد خاب ما يرجو . لقد حرص المهندس الذى قام بتشييد منازل الكهف على ان لا يجعل فيها مكانا يمكن ان يتخذ ملاذا . فعلى رأس كل فراغ بين منزلين وضع مصباح كهربائى قوى بدد الظلمات التى كان ينوى لوبين ان يتستر بها . كما ان الجزء الخلفى من البيوت كان لصق جدران الكهوف فلا مخبأ هناك أيضا .

وظل لوبين يتقدم من بيت الى بيت والحظ حليفه حتى صار من شارع اكستر على مسافة ستة بيوت . واذ ذاك سمع وقع أقدام مصحوبة بجلبة حديث .

وادرك لوبين من ارتفاع وقع الاقدام ان الحراس يقتربون منه . ولكنه لم يكن يدرى اذا كانوا قادمين الى شارع اكستر أو سينعطفون الى شارع سوثمبتون . فلو أنه عرف هذا لاستطاع ان يمضى الى الشارع الى لن يسيروا فيه . على أن الامر الذى لم يكن فيه شك هو انهم لا مفر راجعون الى شارع سوثمبتون حتى ولو ساروا فى شارع اكستر لانه مسدود كشارع بريتون .

على انه كان قد تأهب لمثل هذه المواقف أثناء النهار وهو يطوف الكهوف لقد لاحظ انه بالقرب من مؤخرة كل بيت برميل تودع فيه القاذورات فاسرع لوبين الى البرميل وارتقاه حتى اذا بلغ سطح البيت تعلق بحافته ورفع جسمه الى الاعلى وانبطح فوق السطح .

وأخذ وقع الاقدام يشتد ثم بدأ يخف تدريجيا فادرك أنهم ساروا فى شارع اكستر . ولكنه لبث مكانه ينتظر عودتهم . وبعد قليل سمع وقع خطواتهم مرة أخرى وهم يقتربون واذ ذاك دوت الصفارة ايذانا بأن الليل قد انتصف .

وظهر الحراس فى شارع سوثمبتون وكانت أصوات حديثهم جلية مسموعة وايقن لوبين انهم منه على قد خطوات قليلة فلو أن أحدهم رفع راسه قليلا لرآ وهو منبطح فوق السطح ولا أفرغ فى جسده رصاص بندقيته .

ولكن اللحظة الحرجة انقضت فى سلام . وتابع الحراس طريقهم على ان هذه لم تكن أول عقبة ينتظر ان يلقاها فى طريقه فالكهف غاص بالحراس وكلهم مدججون بالسلاح .

ولما خفت وقع الاقدام وثب لوبين الى الارض . ومضى متجها الى ميدان مانشستر حتى اذا بلغ أوله وقف مكانه يفكر فى الطريق الذى ينبغى ان يتبع .. ان الغاية التى يرمى اليها تحتم عليه ان يسير فى شارع جلاسجو . ولابد لتحقيق ذلك من عبور الميدان . وعبوره ليس بالامر الهين

أرهف لوبين اذنيه للسمع فألقى السكون شاملا . فاطمأن قليلا واتجه الى الميدان . وفى نيته ان يعبره . وكان الميدان فعلا خاليا من الحراس فاسرع لوبين الى الفراغ القائم بين حانوتين واختفى فيه .

وظل ينتقل بهذه الطريقة من حانوت الى حانوت حتى انتهى الى ساحة صغيرة يتفرع منها شارع جديد . ولم يكن هناك سبيل لاجتياز هذه المساحة المكشوفة الا ركضا .

ولم يتردد لوبين فى اتباع هذه الوسيلة فجرى مسرعا .

وفى هذه اللحظة برز حارسان الى الميدان من احدى الشوارع الواقعة فى اقصى الميدان ..!

* * *

لم يكن هناك مجال للتراجع والتقهقر ..! لم يكن هناك مفر من الاستمرار ومواصلة الجرى .. لو انه تراجع لرآه الحارسان .. ولو استمر فى طريقه لراياه أيضا .. فالاستمرار اذن أولى به ..!

وقعت المعجزة التى كان يرجوها ولم يره الحارسان ..! فعندما برز الحارسان الى الميدان لم يكونا فى مواجهة لوبين وانما كانا الى يمينه . فلم يقع بصرهما عليه وقوعا مباشرا . وكف أحدهما عن السير وقال لصاحبه :

— ما هذا ..؟ — ماذا تقصد ..؟

— لقد خيل الى انى رأيت من جانب عينى شيئا يتحرك .. الم تر أنت شيئا ..!

— بل رأيت ولكنى كذبت نفسى ..! لقد ظننتنى واهما

ودار الرجلان فيما حولهما ببصرهما ولكن لوبين كان قد اختفى فى الفراغ الواقع بين حانوتين . وقال أحدهما :

— أرى انه يحسن بنا ان نقوم بطوفة فى الميدان لنتأكد من الحقيقة .

وكان لوبين يستمع الى هذا الحديث وقد ادرك ان النهاية قاربت الوقوع .. حسبهما ان يرياه ليرفعا بنادقهما فتنتظم جسده مئات من الرصاص .. ولكن لوبين لم يكن بالرجل الذى ينهزم امام مثل هذه العقبات .. رأى خلفه .. فى الفراغ الواقع بين الحانوتين صندوقا كبيرا من الوقت المقوى من الطراز الذى يستعمل لشحن البضائع فأسرع اليه ورفع غطاءه واختفى داخله .

وأخذ الحارسان يطوفان أرجاء الميدان وقد مرا بالحانوت ووقع بصرهما على الصندوق ولكن لم يخطر لهما ان هذا « الشىء » الذى لمحاه يتحرك قد اختبأ داخله .

وسمع لوبين أحدهما يقول :

— لا شك اننا واهمان .! ان الميدان خال .

وقال الثانى :

— فليكن .! ولكنى ارجح انى لم اكن واهما .! ان ديزى مقيمة فى هذا الميدان فلا شك ان أحد المعجبين بها غفل عن انتصاف الليل فظل يجالسها حتى الآن وقفل

راجعا الى داره معرضا نفسه للرصاص .. وديزى فى الواقع على جمال لا يتردد المرء فى أن يضحى بحياته من أجلها .

وعلى هذا النسق أخذ الحارسان يتحدثان ويعللان الامر ونجا لوبين .!

واستغرق لوبين ثلاثين دقيقة فى الانتقال من شارع اكستر الى شارع جلاسجو .. وفى خلال ذلك دخل الحارسان الميدان مرتين ولكنهما غفلا عن لوبين ولم يرياه . وكذلك غفلا عن ان الصندوق قد تحرك من دكان الى دكان ! نعم .. كان الصندوق فى أول الامر بين دكانين فى أول الميدان فاذا به الآن بين دكانين فى اقصى الميدان .. وارسين لوبين تحته .!

ولما بلغ لوبين شارع جلاسجو ادرك انه لم يعد فى وسعه ان ينقل الصندوق أكثر من ذلك متخذا منه ملجأ ساعة الخطر .. وذلك لان الصندوق لا يثير الريب اذا شوهد فى ميدان مانشستر الى جانب حوانيت التجارة . أما اذا نقل الى ميدان آخر (حيث لا توجد الحوانيت) فالامر بلا نزاع مثير للريب .

وحالف الحظ بعد ذلك لوبين فاستطاع ان يبلغ ميدان لندن دون ان تعترض سبيله أية عقبة .. علاوة ان ما مضى كان فى رأيه العوبة أطفال . وان المرحلة الخطرة من رحلته قد حلت .! فعليه اولا ان يصل الى دار الرئاسة المخفورة بالحراس المدججين بالسلاح . وعليه ثانيا ان يتسلل اليها ويسرع المفتاح .. فكيف السبيل الى ذلك .؟

واقترب لوبين من الميدان وأبرز رأسه فى حذر فاستطاع ان يرى من الميدان جانبا كبيرا كما استطاع ان يرى مقر الرئاسة ، ولم يكن يجهل ان ميدان لندن هو أيضا مقر الحراس فعلى جوانبه شيدت بيوت يقيم فيها الحراس حتى يكونوا على مقربة من الرئيس بيكلى .

ورأى عند باب البيت حارسا جالسا على أحد المقاعد وقد نشر بين يديه أحدى الصحف وهو منهمك فى مطالعتها . وكانت الصحيفة فكاهية بلا شك اذ كان لا يفتأ يضحك من حين لآخر فى صوت مسموع .

وسار لوبين لصق الدور حتى بلغ نهاية الشارع فانكشف الميدان فليس هناك سوى ذلك الحارس الجالس ببان الرئيس يطالع الصحف وقال لوبين فى نفسه :

— لو ان الامور ظلت على هذا النحو لاستطعت ان ابلغ دار بيكلى دون ان يرانى هذا الحارس .

وجعل يفكر فى خير وسيلة يمكنه ان يتبعها .. وفجأة ومض ذهنه بخاطر فجائى .. وأخذ يدرس هذه الخطة الطارئة .. هل يقدر لها النجاح أو الفشل ؟

وأخيرا عول على تنفيذها ! التقط من الارض حجرا تركه العمال الذين كانوا يتولون تمهيد سقف الكهف وسدده الى نافذة بيت من بيوت الحراس الواقعة فى الطرف المقابل من الميدان .

واخطأ لوبين الهدف فلم يصب النافذة المنشودة ولكنه أصاب النافذة المجاورة لها .

وعكر صفو الليل صوت الزجاج وهو يتهشم .

وانتبه الحارس مذعورا على الصوت فرمى بصحيفته الى الارض وجعل يحملق فى النافذة المهشمة .

واغتنم لوبين هذه الفرصة فجرى مسرعا عبر الميدان الى الناحية التى يقع فيها بيت بيكلى وكان مطمئنا الى ان الحارس لن يراه لانه مازال يحملق فى النافذة وقد اختار لوبين نافذة اذا ادار اليها الحارس راسه لم يراه .

وما كاد لوبين ينتهى من عبور الميدان حتى برز وجه غاضب من النافذة المهشمة وصاح بالحارس :

— تبا لك ! هل علمتك أمك ان تتسلى بتحطيم النوافذ ؟

فصاح الحارس مجيبا :

— اتسلى .! انى كنت اسائل نفسى عمن هشمها !

فقال الحارس صاحب الدار :

— حقا .. انك انت الذى قذفتها بحجر ايها الشيطان .

واخذ الحارسان يتصايحان ويتشاتمان . وهذا يتنصل مما حدث وذاك يغزو اليه الامر . وفتحت نوافذ اخرى مطلة على الميدان وبرزت منها رؤس حراس آخرين جعلوا يشهدون المعركة فى ابتهاج ..

وفجاة فتحت نافذة فى بيت الرئاسة اطل منها بيكلى وصاح غاضبا :

ما هذه الجلبة ايها الاحمقان ؟ اصمتا والا قطعت السنتكما !

فقال احدهما :

— لقد رمى نافذتى بحجر فهشم زجاجها !

وقال الآخر : — انه كذاب مدع ! انى لم اهشم نافذته

فصاح بيكلى : — قلت لكما اخرسا !

وانسحب من النافذة ..

وصمت الحارسان وجعلا يتبادلان نظرات غاضبة ساخطة وكل منهما يتمنى لو انقض على صاحبه يفترسه .

وبعد لحظات بدأت النوافذ المطلة على الميدان تغلق ، وانطفأت أنوار الدور . وانسحب الحارس الغاضب على حين ارتد الحارس المتهم الى مقعده عند باب الرئيس وقد نشر صحيفته بين يديه ومضى يطالعها من جديد .

اما ارسين لوبين فكان فى تلك اللحظة مختفيا تحت اريكة فى بهو الرئاسة مترقبا ان تحين ساعة العمل .

الفصل التاسع

لبث لوبين فى مخبأه نحو ساعة منتظرا ان يستغرق بيكلى فى النوم من جديد .. وكان فى خلال ذلك يفكر فى هذا الموقف العجيب الذى القى نفسه فيه .. أرسين لوبين سجين فى كهف العصبة السرية .. والى الابد .

أرسين لوبين الذى قام بمغامرات هائلة تنادر الناس بانبائها لكى يسرق سندات تقدر بمئات الالوف . أو مجموعات نادرة من الجواهر . أرسين لوبين هذا يقوم اليوم بمغامرة لكى يسرق مفتاحا !

ومن اجل من يقوم بهذه المغامرة ؟ من اجل نفسه . أنه لا يعتقد ذلك ! انه ما اقدم على هذه المغامرة المحفوفة بالموت الا لكى ينقذ سالى وجراسى وجيم .. نعم .. لقد شعر بعطف على هؤلاء الثلاثة الاطهار الذين سيقوا الى الكهف على غير ارادتهم وهم يكادون ان يكونوا ابرياء لا يعرفون الاجرام .. وما اجرموا فى أول حياتهم الا انسياقا

وراء نزعات طارئة ، واستجابة لظروف قاهرة .

وفجأة شعر لوبين بالخوف .. الخوف من اى شيء ! هذا ما لم يكن يدريه .. ربما الخوف من الموت .. ولكن عهده بنفسه انه شجاع لا يقبل الردى . وكم من مرة لقى فيها الموت ماثلا امام عينيه ومع ذلك ظل قلى شجاعته لا يحجم فى روعه ان لهواء الكهوف اثرا فى هذا الشعور الذى داخله . اذ لا شك ان هواءها ثقيل تنقبض له الانفاس فتشيع فى الصدور روح التشاؤم .

وانتقل بخواطره الى ناحية أخرى .. ترى ماذا يكون من شأن سالى وزوجها اذا ما نجح لوبين فى مهمته وانتقلوا الى الدنيا الاخرى ؟ لقد مرت به ثلاث عشرة سنة لم يروا فيها هذه الدنيا وما طرأ عليها من تحول عجيب .. وتلك الاختراعات الغريبة التى وصل اليها الذهن البشرى والتى كانت فيما مضى أدنى الى ان تكون حلما من الاحلام ! ما عسى يقولون فى هذا كله ؟ وهل يؤثر الضوء على عيونهم وهم الذين عاشوا طيلة تلك السنوات كلها فى ضوء صناعى ؟ الا يجوز ان تتأثر عيونهم بنور الشمس فيصيبهم العمى . وبذلك يكونون قد كسبوا الحرية بلا أى جدوى ! انهم يتلهفون الى ان يروا الشمس والحقول الخضراء والنجوم . فهل قدر عليهم ان لا يروها حتى ولو خرجوا من هذه الكهوف ؟ أليس من الخير ان يظل المرء فى هذه الكهوف مدى الحياة على ان يفقد بصره ؟

وفى هذه الخواطر وامثالها تتابعت الساعة التى امضاها لوبين تحت الاريكة .

واخيرا حين اطمأن الى ان السكون قد شمل البيت مرة أخرى تسلل من تحتها فى حرص وحذر .

وكانت الغرفة غارقة فى الظلام لولا هذا الشعاع الخفيف الذى ينبعث اليها من مصابيح الطريق . وارسل لوبين فى الغرفة خيطا رفيعا من مصباحه الكهربائى فتبين مواضع الاثاث ومواقعه .. ثم أدار الضوء على الجدران وعينه الفاحصة ترقب المكان جيدا فوقع فى روعه ان هذا البهو لا يمكن ان يكون مخبأ للمفتاح الذى يسعى اليه . ولا ريب أن له مكانا آخر يودع فيه .

واطفأ لوبين مصباحه الكهربائى واتجه الى الباب فاصاغ السمع برهة فاذا السكون شامل لا يسمع فيه المرء شيئا فوضع يده على المقبض واداره .

ولما صار فى الغرفة المجاورة اضاء مصباحه كما فعل وهو فى البهو . ورأى فى هذه الغرفة بابين فاقترب من احدهما والصق اذنه به منصتا فلم يسمع شيئا .. حتى ولا صوت تنفس فادار المقبض ودخل .

وظل لوبين يدور من غرفة الى أخرى وهو يدرس موقعها وما فيها من اثاث ويتساءل عما اذا كانت هذه الغرفة تصلح مخبأ لمفتاح البوابة ؟

وانتهى به المطاف أخيرا الى غرفة رأى فى صدرها مكتبا وفى ركن منها خزانة كبيرة غائرة فى الجدار الصخرى .

وطاب لوبين نفسا حين وقع بصره على هذه الخزانة .. لا ريب ان مفتاح البوابة مودع فيها .. فهل يستطيع ان يغتصب هذه الخزانة دون ان يشعر به أحد من أهل الدار ؟

لم تكن هذه اول مرة اغتصب فيها لوبين احدى الخزانات ولكنها كانت أول مره اغتصب فيها خزانة دون ان يستعين بجميع الادوات التى قد يحتاج اليها .. نعم ان حول وسطه حزاما يخبىء فيه اداوات اللصوصية ولكن ليس فى هذا الحزام الادوات الدقيقة التى قد يدعو الامر الى استعمالها فى اغتصاب خزنة من طرز حديث .

واقترب لوبين من الخزانة ومضى يفحصها واطمأن بالا حين راى أنها من طراز عتيق ليس من العسير تحطيمه فضلا عن ان الاقراص الدائرة المشدودة بها من ذلك الطراز ذى الصوت الواضح الجلى فلو انه ادار الاحرف المختلفة لاستطاع بسهولة ان يميز الحروف التى اختيرت لتكوين الكلمة السرية .

على ان الامر الذى سره حقا هو انه سيكون فى وسعه ان يغتصب هذه الخزانة دون ان يدع عليها من الخارج اثرا يدل على أنها فتحت . فلن يكون فى حاجة الى تحطيمها او تهشيم قفلها .

ووضع لوبين مصباحه الكهربائى على احد المقاعد بحيث يسلط اشعته على اقراص الخزانة . واسدل الستائر حتى لا ينبعث منها ضوء الى الخارج يكشف عن وجوده . ثم جثا امام الخزانة وشرع يعالج القرص .

اخذ يدير الاحرف واحدا بعد الآخر وهو يرهف اذنيه للسمع ..

وكانت تكات الاحرف الاولى عادية طبيعية .. ثم سمع تكة طويلة عميقة الاثر عرف منها ان هذا الحرف احد

حروف الكلمة السرية ولهذا دار طويلا قبل ان يستقر فى موضعه . وبهذه الطريقة استطاع لوبين بعد أكثر من ساعة ان يتبين جميع حروف الكلمة السرية وكان من اهون الامور بعد ذلك ان يؤلف الكلمة من هذه الحروف .

وادار لوبين الحروف على ترتيبها الطبيعى فاذا بلسان القفل يتحرك من مكانه . واخرج لوبين من منطقته اداة صغيرة دسها فى ثقب القفل وادارها فانفتح باب الخزانة على الفور .

القى لوبين نظرة على داخل الخزانة صغيرة الحجم كما يوحى بذلك بابها اذ كانت طويلة ممتدة فى داخل الجدار وقد انتظمت رفوفها علب مفتوحة ملأى بالجواهر التى يخطف سناها الابصار .

كانت هناك مئات بل ألوف من الماسات واليواقيت مصفوفة على رفوف الخزانة وقد وضعت الى جانب كل مجموعة منها بطاقة صغيرة تبين تاريخ سرقتها واسم صاحبها الذى سرقت منه .

على انه كان فى هذه اللحظة فى شغل عن الجواهر .. كان المفتاح الحديدى الحقير الذى تفتح به بوابة الكهف أثمن عنده الف مرة من هذه الجواهر التى لا يقل ثمنها عن مئات الالوف من الجنيهات ..! نعم .. لو انه خير بين هذه الجواهر والمفتاح لاثر المفتاح عليها .

وقلب لوبين بصره فى ارجاء الخزانة وارى المفتاح !

وفى سرعة خاطفة مد يده وتناوله كأنما يخشى ان تخطفه يد اخرى .

دس المفتاح فى جيبه وهم بان يدور على عقبيه راجعا ادراجه ولكن بريق الماسات فتنه واستهواه . . ! لماذا لا يحشو جيوبه بها . . ولكن لا . . ؟ لو انه فعل لاسترعى نقص الجواهر بصر بيكلى ولبحث عن المفتاح فاكتشف سرقته . ولوبين فى حاجة الى يوم واحد قبل ان تكتشف السرقة . كلا فليدع الجواهر اذن مكانها ، حسبه ان ينال المفتاح فانه ان طمع فى الجواهر لفت الانظار . . واثر الريب والشكوك .

ولكن قلبه مع ذلك لم يطاوعه ان يدع الجواهر كما هى دون ان يمسها ، أنه لن يأخذ منها حفنة او حفنتين ، حسبه أن يأخذ ماسة واحدة من كل مجموعة ، بل من بعض المجموعات ومد لوبين يده واختار بعض الماسات فدسها فى جيبه . ثم رد باب الخزانة واغلقه كما كان . ثم اقترب من النافذة وارسل بصره الى الطريق .

كان الميدان باديا امام عينيه وهو واقف بالنافذة يراقب الطريق . . ولكنه لم ير أحدا من الحراس ، غير انه كان موقنا أن هناك حارسين على الاقل تحجبهما عنه نتوء المنازل .

فتح لوبين النافذة وابرز رأسه منها فى حذر فسمع حديثا يدور بين حارسين . ولم يكن هناك مفر من ان يتأكد من مكان وقوفهما وهل يستطيع ان يغادر البيت دون ان يراه !

تخطى لوبين سياج النافذة ووقف على نتوئها الخارجى بحيث يستطيع ان يرى كل ركن فى الميدان . . رأى الحارسين عند باب الدار يتبادلان الحديث وقد انكبا

على الصحيفة المنشورة بين أيديهما يحاولان ان يحلا لغزا منشورا فيها .

وجعل لوبين يكدح ذهنه . . لا فى حل اللغز وانما فى الوسيلة التى يستطيع بها فرارا من الدار ! لو انه خرج من باب البيت وسار لصق الجدران لرآه أحد الحارسين بلا نزاع وحسب احدهما ان يريد راسه قليلا ليراه ! فما العمل ؟

فى المرة الاولى عند قدومه كان هناك حارس واحد فكان من السهل تحويل بصره الى جهة معينة اما الآن فما العمل ؟

فكر لوبين طويلا دون ان يقع على حل معقول . أترى يحسن به ان يعمد الى الحيلة الاولى ؟ ايرمى النافذة بحجر حتى يسترعى بصرهما الى ناحيتها ! ولكن التجارب علمته ان لا يلجأ الى حيلة واحدة مرتين والا انكشف امره فى المرة الثانية !

ولكن ما الحيلة الآن وهو لا يجد وسيلة أخرى ينفذ بها نفسه !

رجع لوبين الى داخل الغرفة وأخرج من منطقته قطعة من الحديد . ثم تخطى سياج النافذة ثانية ووقف على بروزها الخارجى وسار عليه فى حذر خشية ان نزل قدمه فيسقط الى الارض .

رفع لوبين ذراعه وطوح قطعة الحديد بكل قوته فعبرت الهواء واصابت زهاج النافذة فحطمته . ذهب الحارسان واقفين وارسلا بصرهما الى النافذة المهشمة ! وبذلك اوليا ظهرانهما الى باب الرئيس . . وفى هذه الفترة الوجيزة

كان لوبين قد خرج الى الميدان وعبره مسرعا وتوارى فى احد الشوارع مطمئنا الى ان الحارسين لن يرياه ما دام بصرهما عالقا بالنافذة .

وبعد لحظات برز رأس من النافذة . رأس تتوسطه عينان غاضبتان ينبعث منهما الشرر ولكن الحارس الغاضب لم يستطع ان ينفس عن صدره وينطق بكلمة واحدة خشية بطش بيكارى . فاكتفى من ثورته بان لوح بقبضته مهددا متوعدا .

وعندما اختفى الرأس الغاضب شرع لوبين فى اجتياز الشوارع متجها الى بيت ميلر .

وعلى الرغم من طواف الحراس فى الشوارع المختلفة لم ينكشف أمره وكما استعان بالصندوق المصنوع من الورق المقوى فى قدومه استعان به ايضا فى عودته .

وقبل ان يدخل لوبين الى شارع سوثمبتون رأى حارسا يبرز فجأة من خلف المتعطف .

لم يكن لوبين بالرجل الذى يضطرب ازاء المواقف الحرجة المفاجئة .. كان له ذهن نير صاف لا يخبو .. بل ان هذا الذهن ما كان ليتقد ويرسل ومضاته القوية الا اذا أحرجته الظروف .

هو ذا الحارس يبرز فجأة فى الطريق .. ولم يكن هناك مجال للعودة فما العمل . لو ان شخصا آخر خلاف أوبين فى مثل هذا الموقف لاسلم ساقيه للريح ولتلقى فى ظهره عشرات من الرصاصات . أو لوقف مكانه جامدا لا يدرى ماذا ينبغى ان يصنع !

ولكن لوبين لم يفعل شيئا من هذا !

لم يكد يرى قدما تبرز من خلف المنحنى .. تتبعها ذراع .. حتى ادرك ان ما ظهر حتى الآن ليس الا « مقدمة » حارس لا يلبث ان تبدو بقية جسده .

وهكذا قبل ان تظهر بقية الجسد ، كان لوبين قد فكر ونفذ .. اسرع الى باب البيت المجاور له ففتحه على عجل ودخل .. ثم أغلقه خلفه .

وكانت الدقائق التالية من احرج ما مر به .. لم يكن على يقين من ان الحارس لم يره .. اذ من المحتمل جدا أن يكون الحارس قد لمح ظهره وهو يختفى فى البيت . أو من المحتمل أن يكون قد رأى الباب وهو يتحرك عند ابصاره ! ومهما يكن من الامر فالمسألة خطيرة لا يدرى احد كيف تنتهى . حياته فى هذه اللحظة معلقة فى كفة القدر .

ولم يكن فى وسع لوبين ان يتحرك وهو واقف خلف الباب ولا ان يختفى فى احدى الغرف . اذ ما يدريه ان هذا البيت شبيه فى نظامه ببيت ميلر .. ان من المحتمل ان يكون أصغر منه حجما وقد يدخل غرفة فيجدها مخدعا يستيقظ من فيه وبذلك تقع الكارثة الكبرى .

وسمع لوبين اهة صادرة من احدى الغرف .. هذا رجل يحلم فى نومه .. وقد بدأ يتقلب فى فراشه .

وهذه خطوات الحارس تدنو من البيت .. تدنو على مهل .. وفى حذر .. اذن فقد لمحه الحارس وهو يدخل

الدار . ها هو ذا يقترب .. ويقترب .. فى حذر . وحرص .

والنائم مازال يتقلب فى فراشه ..!

وادرك لوبين ان النكبة قد حلت .. ! بعد لحظات سيجد نفسه محصورا بين الحارس من الامام وصاحب الدار من الخلف ..! لا مهرب له ولا مفر ..!

واقتربت أقدام الحارس من الدار .. وفجأة تجاوزتها وتابع سيره ! اما صاحب البيت فسكن واستغرق فى النوم من جديد .

وبعد خمس دقائق غادر لوبين الدار .

وظل ينتقل من شارع الى شارع حتى انتهى الى بيت ميلر فدخله .

وما كاد يتخطى العتبة حتى غمر الضوء الكهربائى المكان .. كانت سالى وزوجها جالسين فى الردهة مستيقظين يترقبان عودته !

وحملق فيه جيم وقال فى صوت متهدج :

— هيه ؟

ولم يطاوعه لسانه على ان ينطق بكلمة اخرى .

فضحك لوبين ودون ان يجيب أخرج المفتاح من جيبه وقدمه اليه ..

وحملق جيم فى المفتاح ، ثم تهالك على احد المقاعد كانما لا تحمله ساقاه وهتف يقول :

— يا الهى ! مفتاح البوابة ! مفتاح البوابة !

فغمغم لوبين يقول :

— بل مفتاح الحرية .

الفصل العاشر

فى بكور اليوم التالى دخل جيم قاعة الاستقبال فاستيقظ ارسين لوبين ، فبادره جيم بقوله :

— هل استطعت حقا ان تظفر بالمفتاح فى الليلة الماضية ؟ الماضية ؟ انى لا اكاد اصدق ان هذا صحيح !

فضحك لوبين وقال :

— ولم لا يكون صحيحا . ألم تر المفتاح بنفسك يا جيم لقد كان مودعا فى خزانة بيكلى !

فهز جيم رأسه وقال :

— ليت شعرى كيف استطعت ان تظفر به ؟ الم يكن هناك حراس فى الطرقات ؟ ألم يكن هناك حارس قائم عند باب البيت !؟ وكيف استطعت ان تتسلل الى البيت وتفتح الخزانة دون ان يشعر بك بيكلى ؟

بل كيف استطعت ان تفتحها ؟

وضحك لوبين ثانية وقال :

— اما فتح الخزانة فكان من اهون الامور . واما الحراس فكانوا يملأون الطرقات حتى لقيد خيل الى ان عددهم قد تضاعف !

— ولكن كيف استطعت ان تصل الى البيت دون ان يراك أحدهم ؟ وكيف استطعت ان تعود ادراجك ؟ الم يرك أحد منهم ؟

— لو انهم رأونى لما رأيتنى الآن هنا حيا . ! ولكنى سأنبئك بالتفاصيل أثناء تناول الفطور .

وهز جيم راسه وقال :

— انى لا اكاد اصدق شيئا من هذا .. دعنى القى نظرة أخرى على المفتاح .

فقال لوبين باسما :

— هذا غير ممكن يا جيم .! لقد خبأت المفتاح !

— خبأته .! ولماذا ؟

— لن استعمله قبل حلول الليل فما الذى يدعونى الى ابقائه معى وقد يضيع منى لسبب من الاسباب .

فضحك جيم وقال :

— يضيع منك انت . لو ان الشيطان نفسه حاول ان يسرقه منك لعجز .!

فابتسم لوبين وقال :

— شكرا على هذا الثناء !

— انى اعنى ما أقول حقا ! لقد صرت اعتقد انك لا تعرف المستحيل . كل شىء عندك ممكن ! ومع ذلك .

وسكت فقال لوبين :

— ومع ذلك ؟

— ومع ذلك فلست ادرى كيف تستطيع مغادرة الكهف حتى ولو كان المفتاح فى حوزتك ! ان الحراس نائمون عند البوابة !

— ولقد كان الحراس قائمين ايضا عند باب بيكلى ! فهل ردنى وجودهم عن الدخول ؟

— وهب انك استطعت التخلص من الحراس فما عسك

تفعل بجرس الانذار ؟ لو ان البوابة فتحت لرددت الكهوف رنينه .

— وما يعنينى انا من الامر مادامت البوابة قد فتحت اذا ما فتحت البوابة انطلقنا نجرى هاربين ولن يستطيع أهل الكهف مطاردتنا الى الخارج خشية الوقوع فى ايدى البوليس ؟

وهتف جيم يقول :

— يا الهى ! لقد خيل الى وانا اسمعك تتكلم يا لوبين ان الفرار من الكهف اصبح ممكنا .

واشرق وجهه وهو ينطق بهذه الكلمات . ولكن سحابة من الغم ما لبثت ان علت سحنته وتمتم يقول :

ولكن هبهم تبعونا الى الخارج ان الحراس لن يترددوا فى مطاردتنا حتى لا نكشف للبوليس سر الكهف .

وكان هذا صحيحا .. وما كان لوبين ليجهل ان فى الامر مخاطرة كبيرة .. فقد تستمر المطاردة خارج الكهف .. كما ان من المحتمل ان يكون مدخل الكهف واقعا فى مكان مهجور فى قلب غابة مثلا .. واذ ذاك تكون المطاردة الخارجية من اهون الامور .. كانت هناك احتمالات كثيرة ولكن لوبين لم يشأ ان يرهق نفسه بالتفكير فيها الآن .. حسبه من الامر انه ظفر بالمفتاح .. وما دام قد نجح فى اتخاذ الخطوة الاولى فانه من المحتمل جدا ان ينجح فى الخطوة الثانية ايضا ومهما يكن من الامر فلا بد من القيام بالمحاولة حتى ولو افضى الامن الى موته ما دام الموت هو المصير الوحيد لو بقى فى الكهوف .

ولكن جيم الح عليه بالسؤال فقال لوبين :

— لقد فكرت فى هذا كله وساتخذ من أسباب الحيطة ما يكفل النجاح .

— كيف ؟

— سأعطل الجرس عن العمل ؟

— كيف ؟!

— لست ادرى .. ولكنى سأبحث عن الوسيلة .. ربما تسللت الى مصنع الكهرباء وقطعت التيار الكهربائى .. سترى على أية حال .

ولما أوشكو ان يفرغوا من تناول الفطور قال جيم وقد لاحت امارات الحيرة على وجهه :

— يظهر انه لابد لى ان أسألك عدم المبيت الليلة فى البيت فضحك لوبين وقال :

— هذا أمر مفروغ منه .. لانى الليلة لن ابيت فى الكهوف على الاطلاق .. ولكنى أرجوك أولا ان تعيرنى قميصا ملونا من قمصانك ارتديه فوق قميصى الاسود .

— لك ما شئت !

— وما العمل الذى استطيع ان ازاوله اليوم ؟

— العمل ..!

— اما ذكرت لى ان جميع الرجال فى هذه الكهوف ملزمون بالعمل ؟

— هذا صحيح ..!

— انى أريد عملا يتيح لى فرصة الانتقال من شارع الى شارع .

وبعد ان فكر برهه قال :

— يمكنك ان تشتغل زبالا تنقل القمامة من البراميل الى مستودعها .

— وأين الغرارة التى احمل فيها القمامة ؟

— سأعيرك غرارة .

— شكرا لك .. ان هذه المهنة تلائمنى جدا اذ ستمكننى من الطواف فى الكهوف دون ان اثير الريب .. وعندما يرانى الناس امر فى أحد الاحياء ظنوا انى اعمل فى حى آخر .. وهكذا ..!

وقالت سالى :

—وأين ينوى لوبين ان يتناول غداءه ؟

— فى الحانة .. وسأزوده بما يكفى من النقود .

— لن أكون فى حاجة الى الغداء .. لانى لا أريد ان اغشى الحانة حتى لا الفت الانظار .

فقالت سالى :

— والعشاء ..! كلا يا لوبين .. يجب ان تحضر لتناول الطعام معنا .. ! اننا لن نرضى بان نحملك هذه المشقة .. اما فى الغد .

فقاطعها لوبين بقوله :

— لن يكون هناك غد يا مسز ميلر .. فى الغد ستكون خارج الكهوف أو سأكون انا جثة هامدة !

بعد ان فرغوا من تناول الفطور حمل لوبين غرارته على ظهره بعد ان ارتدى فوق قميصه الاسود القميص الذى أعاره له جيم . ثم خرج الى الطريق واخذ ينتقل من شارع الى شارع .

وحين بلغ ميدان مانشستر لاحظ ان اغلب الحوانيت قد علقت لوحات عند ابوابها عليها عبارات يفهم منهـا ان اصنافا معينة من الطعام « كالبطاطس والسجائر واللحوم .. الخ » قد فرغت وان لابد من انتظار الشحنة التالية .

وعبر لوبين ميدان مانشستر ومضى الى ميدان برمنجهام فبدا دوى آلات المصانع فى اذنه واضحا جليا .. لو انه استطاع ان يصل الى مصنع الكهرباء لتمكن من تعطيل الآلات حتى يفسد جرس الانذار .

وانتهى به المطاف اخيرا الى ميدان سوثند .. وفى صدر هذا الميدان تقوم البوابة .. بوابة الحرية .. ترى ايستطيع ان يتجاوز هذه البوابة الى عالم النور والشمس والازهار .. أم قضى عليه ان ينقلب جثة هامدة اثناء محاولته الفرار ؟

ولاحظ لوبين ان على جانبى الشارع المفضى الى البوابة اكشاكا خشبية جعلت لاقامة الحراس فيها فلو انه استطاع ان يتسلل مع جيم على مقربة من هذه الاكشاك لامكنه ان يفاجىء الحراس فيأخذهم على غرة .. ولكن كيف السبيل الى الاقتراب من الاكشاك ؟

لم يكن لوبين فى هذه اللحظة يعلم على وجه التأكيد الوسيلة التى تمكنه من ذلك ولم يكن فى وسعه ان يطيل النظر الى الاكشاك خشية ان يحرك الوساوس فى صدور الحراس القائمين هناك فتابع سيره دون ان يلتفت خلفه

وفجأة تفتق ذهنه عن خطة لتذليل هذه العقبة ! فى وسعه ان يتسلل مع جيم الى اقرب بيت للاكشاك فيصرعان سكانه ويكممان أفواههم وبعد ذلك يخرج لوبين من البيت

فيراه الحراس ولكن قبل ان يسددوا اليه بنادقهم يكون قد اختفى خلف المنعطف . ويسرع الحارسان خلفه بطبيعة الحال ويكون لوبين قد تهيأ للامر بمد سلك عبر الطريق يتعثر فيه الحارسان فيعقان على الارض وقبل ان ينهضا من سقطتهما يخرج جيم من المنزل ويصرع احدهما بضربة من حجر على رأسه ويشتبك مع الثانى . ويخف لوبين الى نجدته فى هذه اللحظة ويصرعان معا الحارس الثانى

بهذه الطريقة ينقلب الحارسان مشلولين لا يملكان الاقدام على أى عمل فيفتح لوبين البوابة ويفر هاربا وفى رفقته جيم وزوجته وابنتها .

وكان لوبين يسير وغرارته على كتفه مبتهجا مسرورا اذ اهتدى الى هذه الخطة المحكمة التى لا نزاع فى نجاحها ولم يزعجه ان تخلو الطرقات من الرجال اذ انصرفوا جميعا الى أعمالهم فى المصانع او الحوانيت فلو ان احدا رآه لظنه الزال المكلف بجمع القمامة .

ومر لوبين باحد الشوارع فرأى نفرا من النساء جالسات عند الابواب يطرزن فسألته احداهن عن الزبال الثانى وأين ذهب فابتسم لوبين وقال :

— سيأتى طبعا بعد قليل .. انى لم احل مكانه انى ذاهب الى حى آخر .

ودار لوبين حول المنعطف وانتقل الى شارع ثان .

وفجأة رأى جمعا من الناس محتشدين فى ميدان مانشستر وقد وقف الحراس عندهم .

وصاح احد الحراس بلوبين:

— تعال يا هذا وانضم الى هؤلاء !

وعض لوبين على شفته لم يكن هناك مجال للتراجع أو الفرار . لقد ادرك منذ النظرة الاولى حقيقة ما حدث لقد عرف بيكلى ان المفتاح سرق من خزانته فأمر بالبحث عنه فشرع الحراس يفتشون اهل الكهف فكلما مر بهم رجل استوقفوه وفتشوه ؟

اذن فقد اكتشفت سرقة المفتاح فهل قضى عليه بأن يظل سجينا فى الكهف مدى الحياة ؟

الفصل الحادى عشر

انضم لوبين الى صف الرجال الذين يترقبون نوبتهم فى التفتيش وصاح به الحارس :

— ارفع ذراعيك الى الاعلى ولا تنزلهما الا اذا اردت ان أطلق عليك النار .

ورفع لوبين ذراعيه فى يأس .. لقد انهارت خطته ولم يعد له رجاء فى الفرار ! لقد دبر الامر بحيث يضمن النجاح مستحيلا ! مستحيلا ! وهو الرجل الذى كان يعتقد منذ دقائق ان لا مستحيل فى الدنيا !

ولم يحزنه الاخفاق من أجل نفسه .. وانما من أجل الآخرين الذين ركنوا اليه وتفتحت زهور الامل فى قلوبهم .. لقد اطمأنوا الى النجاة على يديه ولكنه الآن سيتخلى عنهم ويملأ صدورهم يأسا بعد ان شاع فيها الرجاء

وكان الحارس كلما فرغ من تفتيش أحد الرجال أمره

بالسير الى جهة أخرى يعزل فيها عمن لم يفتشوا بعد فلم يكن فى وسع لوبين ان يضلل وينضم خلسة الى الآخرين .

واقترب منه الحارس أخيرا اذ حان دوره وقال :

— ما اسمك ؟ — ويليام جونز !

— مهنتك ؟ — زباك

— وعنوانك ؟ — شارع أكستر

— رقم ؟ — ستة

وحدق الحارس فى لوبين وقد استرعى بصره اسمرار سحنته من أثر الشمس وقال :

— اجئت الى الكهوف حديثا ؟

— منذ ثلاثة أيام .

— اين كنت فى الليلة الماضية ؟

— نائما بالطبع .

— وما الداعى الى « بالطبع » هذه ؟ الا تعجبك اسئلتى ؟.

— أسألك المعذرة يا سيدى ؟ — ما هذا ؟

وفك ازرار قميصه ودس يده تحته ثم اخرجها فاذا فيها الحزام الجلدى المشدود حول وسط لوبين والذى يودعه الادوات والآلات التى يستعملها فى اللصوصية .

وفحص الحارس الحزام ثم نادى زميله قائلا :

— توم ! ما رايك فى هذا ؟

ففحص الثانى الادوات بدوره ثم قال :

— انها آلات يمكن ان تستعمل فى فتح أبواب المنازل

واعتصاب الخزانات .. لعمرى ان الرئيس يجب ان يقابل صاحب هذه الادوات .

وحمل الحارس الثانى بندقيته وقال يخاطب لوبين :

— سر امامى .

ومضى بى الى دار الرئاسة . وكان لوبين يسائل نفسه عما اذا كان جيم قد رآه من احدى النوافذ وعرف ما صار اليه أمره . وما عسى يكون من أمر المسكين حين يرى فجأة ان الامال قد انهالت وتهدمت !

وسيق لوبين الى مقر الرئاسة وادخل غرفة لم ير فيها الا مكتبا وثلاثة مقاعد .

وبعد قليل فتح الباب ودخل الرئيس بيكلى .

وكان مديد القامة . ذا سحنة بشعة لا ينظر اليها المرء الا تبين ان الرجل مولع باراقة الدماء .

وجلس بيكلى على المقعد الموضوع امام المكتب وقال :

— هيه .. ماذا جرى يابرت ؟

فاشار الحارس الى الحزام الموضوع على المكتب قائلا :

— القى نظرة على هذا الحزام ؟

وفحص بيكلى الادوات وتمتم يقول :

— ادوات على غاية من الدقة والاتقان .

ثم التفت الى لوبين قائلا :

— ماذا كنت تفعل بهذه الادوات ؟

— لم اكن افعل شيئا بها الآن .؟ لقد كانت معى عند قدومى .

— ولماذا استبقيتها معك .. الم تؤمر عند دخولك الكهف بأن تسلم كل ما معك ؟

— لقد ضننت بها لانها ادوات نادرة لا مثيل لها .

— أكنت ترجو منها أية فائدة وانت فى هذه الكهوف ؟

— كلا .

— ومع ذلك فقد أصررت على الاحتفاظ بها ؟

وكانت نبرات صوتت قد اشتدت وقست ثم قال :

— ما اسمك ؟

— ويليام جونز ؟

فاخرج بيكلى من درج امامه دفترا جعل يقلبه وهو يقول : « جونز .. جونز » .

ثم مال الى الامام قائلا :

— ها هو الاسم .. ويليام جونز . اذن فقد كان هذا الحزام معك عندما جئت الى الكهوف منذ ثمانية شهور ؟

— نعم .

وما سمع الحارس قوله هذا حتى صرخ :

— ماذا تقول ! منذ ثمانية شهور . انه لم يقض فى هذا الكهوف ثمانية شهور ؟

فقال الرئيس :

— ماذا تقصد يا برت ؟

— عندما سألته ذكر لى أنه لم يمض فى هذه الكهوف الا ثلاثة أيام .. أنى اراهن ايها الرئيس على انه الرجل الذى تبحث عنه .. ان سلوكه واجاباته مريبة !

فقال بيكلى يسأله :

- اذن فانت لم تحضر الى هذه الكهوف الا منذ ثلاثة أيام ؟

وابتسم بيكلى ابتسامة شيطانية رهيبة وقال :

- ما هو عنوانك ؟

- المنزل رقم ٦ شارع اكسترا .

فتناول بيكلى دفترا آخر قلب صفحاته حتى انتهى الى صحيفة معينة منها قراها ثم نهض واقترب من لوبين وقال فى صوت هادىء رهيب :

- متى جئت الى هذه الكهوف ؟

- لقد أجبت من قبل على هذا السؤال .. منذ ثلاثة أيام .

- انك كذاب مدع ! آخر مرة فتحت فيها البوابة كانت يوم الاربعاء الماضى !

وصاح الحارس يقول :

- يا الهى . كيف استطاع الدخول أيها الرئيس ؟

- اخرس أنت .. كيف دخلت الى الكهف ؟

- من البوابة طبعا .. فاذا كانت لم تفتح الا فى يوم الاربعاء الماضى فلا شك انى اخطات حساب الوقت اذن .. لا شك انى جئت يوم الاربعاء !.

ومسألة العنوان ! ما قولك فيها ؟ ليس فى المنزل رقم ٦ بشارع اكسترا ساكن على الاطلاق ! انه خال !

كان هذا صحيحا فقد لاحظ لوبين ان المنزل خال وهو يطوف بالكهوف .

واسترسل بيكلى فى لهجة غاضبة :

- تكلم من أنت ؟ وكيف دخلت الكهوف ؟

فقال لوبين فى اصرار :

- من البوابة ؟

فابتسم بيكلى ابتسامته الشيطانية وقال :

- لوانك امضيت فى الكهوف زمنا طويلا لعرف عنى الشىء الكثير .

فقال لوبين فى هدوء :

- لقد عرفت يا بيلكى انك قاتل ! اذا كان هذا هو ما ترمى اليه ؟

- اذن فقد عرفت ما فيه الكفاية ! هذا هو مصيرك .. خذه يا برت .

- الى أين ؟ الى الزانزانة ؟

- نعم .. وسأريه الطريقة التى نتخلص بها من أمثاله !

ثم التفت الى لوبين وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامته الرهيبة وقال :

- يمكنك ان تقضى الوقت فى الصلاة .. اذا كنت تعرف كيف تصلى .. فبعد ساعة لن تكون الا جثة هامدة .

ولم يكن هناك خفاء فى ان لهجته كانت لهجة الرجل المولع بسفك الدماء .

وساق الحارس لوبين الى كشك قريب من دار الرئاسة ذى سقف منخفض اضطرا عند دخوله الى احناء راسهما. وفى اقصى هـــذا الكهف فجـــوة فى الارض هى مدخل « الزنزانة » التى تحدث عنها الحارس . وقـد اقيم على الفجوة سياج من الحديد مزود بقفل كبير .

ومال الحارس فوق القفل يفتحه وبندقيته مصوبة الى لوبين بحيث تكفى أقل حركة يبديها لكى يضغط الحارس على الزناد فاذا لوبين جثة هامدة .. ولو قيـــل انقضاء الساعة الموعودة !

ورفع الحـارس باب الزنزانة وامر لوبين بالنزول فالفى أمامه درجا من الصـخر ممتدا الى باطن الهاوية فهبطـــه وعند ذلك رد الحارس السياج كما كان واغلقه بالقفل . ولم يكن للوبين بد من الاذعان اذ ما عســاه يستطيع ان يفعـل ازاء بندقية الموت ؟

— لا تنس صـلاتك .. ان الرئيس لا يلبث ان يحضـر اليك ومعه جرتى . ولكيلا يتبادر الى ذهنك ان جـــرتى هذا شاب ظريف فأعلم أنه مسدس الرئيس .. وقد اطلقنا عليه هذا اللقب وقد قتل به الرئيس حتى الآن اثنى عشـر شخصا !

ولوح الحارس بيده ومضى واشتمل السكون المكان .

وكانت الزنزانة ضيقة لا تزيد مســاحتها على مترين فى ثلاثة أمتـار وقـد نحتت فى الصخر الاصم ولم يكن فيهـا مقعد يجلس فوقه سـجين . فلا مفر للمرء ان اراد النـوم

الجلوس من يفترش الارض الصخرية غـير الممهدة ولاحظ لوبين أن الارض منداة بالمـــاء فايقن ان هنـــاك بلا ريب ثقوبا فى الصخور يرشـــح منها ماء النهر ولكن لا ريب ان هناك ثقوبا اخرى تصرف الماء منها والا امتلأت به الزنزانة

وكان هناك مصباح صغير مثبت فى سـقف المكان اطمأن اليه لوبين وازال عنه وحشته وان كان موقنـا من ان هذا المصباح لم يوضـــع مكانه الا لكى يرى بيكلى ضحاياه على ضوئه حتى يرسل اليه التحية من مسدس جرتى !

وجال (لوبين) نظره فى المكان فلم يغب عنه أن الفـــرار مستحيل اذ كيف يجد له مخرجا من صميم الصخر ؟ لو انه كان نملة لما وجد شقا يلوذ به .. ! اذن فتلك هى النهاية ؟

وتتابعت الدقائق حتى اذا انتظمت قرابة السـاعتين سمع لوبين وقع أقدام تقترب ، ثم صوت بيكلى وهو واقف عند رأس الزنزانة يخاطبه بقوله :

— هيه ؟ هل صليت ؟ انى نازل اليك يا مستر جـونز لأملأ معدتك بالرصاص !

وكان فى رفقته حارس تولى فتـح باب الزنزانة ، فهبط بيكلى الدرج ، على حين ظـل الحارس عند المدخل وبندقيته مهيأة تأهبا للطوارىء .!

وضحك بيكلى وقال فى وحشية :

— هيـــه ! الا تريد ان تجيب ! ابتعـــد اذن الى ركن الزنزانة وارفع يديك الى الاعلى .

فضحك لوبين وقال :

— يالله ! الا زلت خائفا منى وانا اعـزل من السلاح .؟

— اطبق فاك بالجدار ، واياك ان تعصى لى أمر ؟

— وما الذى يدعونى الى طاعتك ؟

— اذا عصيتنى قتلتك كالكلب الحقير .!

واذا اطعتك قتلتنى كالكلب غـير الحقير ! الموت هـو المصير فى حالتى الطاعة والعصيان ! هيا اقتلنى وعجـل ، ولا داعى للثرثرة !

فقال بيكلى فى وحشية :

— سمعا وطاعة يا صديقى ، وسأفرغ مسدسى فى قلبك هذا هو مصير أمثالك فى هذا الكهف !

فابتسم لوبين وقال :

— اذن فأنت الرئيس والجلاد فى ان واحد !

— نعم .. واذا استزدتنى ايضاحا قلت لك انى الرابـع عشر الذى أطلقت عليه النار فى هذا الكهف !

— اذن فستقتلنى عن عمد واصرار ؟

— ان تنفيذ أحكام الاعدام لا يمكن أن تتم الا عن عمـد واصرار .

— وهو نى ليس تنفيذا لحكم الاعدام .! انه جـريمة قتل .

فهز بيكلى كتفيه فى ازدراء وقال :

— كلمتى هى القانون النافذ فى هـذه الكهوف يا مسـتر جونز .. فاستعد ؟

وفى بطء وتؤدة قصد بهما بيكلى الى تعذيب السـجين رفع مسدسه وسده الى قلب لوبين .

الفصـل الثـانى عشر

قال ارسين لوبين يسأل بيكلى فى صـوت هادىء لا ينم عن الاهتمام :

— أعثرت على مفتاح البوابة ؟

فاهتز المسدس فى يد بيكلى وصاح :

— ماذا تقول ؟ ما الذى تعرفه عن المفتاح ؟

وخفض مسدسه ونظر الى لوبين مستفسرا .

— لا أعرف الا القليل ! أنا الذى سرقته من خزانتك .. كان موضوعا فى صندوق صغير أحمر اللون .!

ومرت لحظات وبيكلى يحملك فى السجين دون ان يقوى على النطق ثم صاح أخيرا ينادى الحارس :

— برت .. اسمعت ما يقول ؟ انه هو الذى سرق المفتاح انزل وفتشه .. اذن فأنت الذى سرقت المفتاح ! عقابا لك على هذه الجريمة لابد ان ..

فقال لوبين هازئا :

— لابد أن تقتلنى مرة أخـرى ! ان الامر مستحيل كمـا ترى ! ومـع ذلك فلا داعى لتفتيشى لان المفتـاح ليس موجودا معى !

— سنرى ! لست أصدق أكاذيبك بعد الآن .. فتشـه يا برت !

وهبط برت الى الزنزانة وفتش لوبين تفتيشا دقيقا دون أن يعثر فى جيوبه أو بطانات ثوبه على المفـاح المنشود .

— انه ليس معه !

— ولكن لابد أن يكون معه !
— لقد رأيتنى وانا افتشه !
فانبرى لوبين يقول .
— أصدقتنى الآن ؟
فصاح الرئيس :
— فليكن ! لابد لى ان اقتلك سواء كان المفتاح معك او لم يكن .
اذا قتلتنى فلن يقع بصرك على المفتاح مره أخرى !
وصاح الحارس يقول :
— لا تقتله أيها الرئيس والا لم نهتد الى المفتاح ثانيـــة ولم تفتح البوابة .
— اطبق فمك أيها الابله .! اليس فى الكهف من يستطيع ان يصنع مفتاحا للبوابة .
— وهبك لم تجد فما يكون العمل ؟
— وما اهمية ! انك تعلم انه مقتضى علينا البقاء فى الكهوف حتى يدركنا الموت .
— هذا صحيح .. ولكن كيف نخرج المنتجات ؟
فعض بيكلى على شفته وقال :
هذا صحيح .. فلنرغم هذا النذل على الكـلام اذن .
فقال لوبين مقترحا :
— اقتلنى أولا وبعد ذلك سلنى عن المفتاح ..؟
فقال الرئيس وهو يلوح بيده مترددا :
— اخبرنا اين المفتاح والا ..

— والا ماذا ..؟
— هناك وسائل كثيرة للتعذيب وعند ذلك ستجد نفسك مرغما على الكلام . سأدعك بلا طعام أو شراب وسنرى بعد يوم أو يومين اذا كنت تصبر على هذا الجوع !
فقال برت :
— هذه خطة حكيمة .. فلندعه يعانى الام الجوع ، وعلينا فى خلال ذلك ان نعهد الى أحد العمال يصنع مفتاح جـديد فاذا استطاع قتلنا هذا اللص بلا رحمة أو شفقة .
وصعد الحارس يتبعه الرئيس .
وقال بيكلى وهو واقف عند مدخل الزنزانة :
— سنرى اذا كنت ستكاشفنا بمخبأ المفتاح أم ستظل مصرا على الكتمان .
ومضى مع الحارس .. وجعـــل لوبين يتدبر الموقف .. لن يكون صنع مفتاح آخـر من المستحيلات وان استغرق الامر وقتا ، فعليه فى خلال ذلك ان يتحين فرصة للفرار .
ولكن كيف السبيل ! ان قفل الزنزانة من صنف عادى سهل اغتصابه لو ان ادواته كانت معه .. اما الآن وقد جرد من حزامه فلا سبيل له الى اغتصاب القفل !
ولكن لوبين لم يكن بالرجل الذى يفقـد الامـل حتى فى أحـرج الظروف ، ومضى يجول فى انحـاء الكهف ويفحص الجدران فالفاها كلهـا منحوتة فى الصخر ليس فيها منفـذ سرى .. اذن فقد قضى عليه بالبقاء فى هذا الكهف .. ومن يدرى ! قد يموت جوعا اذا لبث مصر على الكتمان .

اه .. انه ينزل من حياته عن بضعة اعوام لقاء قطعة من الحديد أو مسمار .. بهذا المسمار يستطيع ان يغتصب قفل الزنزانة فمن له به .. ؟

نعم .. بالمسمار يستطيع ان يغتصب القفل اذا استطاع ان يصل الى القفل .

ولم يملك لوبين ان ضحك عندما دار هذا الخاطر فى ذهنه شأنه فى ذلك شأن الرجل الفقير الذى قال : « اذا كان عندنا بيض لاكلنا بيضا باللحم المفروم أذا كان لدينا لحم مفروم ! »

والامر كله متوقف على « اذا » من جميع نواحيه !

واخذ لوبين يرتقى الدرج حتى اذا توسط السلم استحال عليه ان يصعد أكثر من ذلك اذا لم يكن الفراغ بينه وبين سياج المدخل ليتسع لجسده ولكنه احنى رأسه وثنى جسمه واخذ يصعد درجة بعد درجة حتى كاد رأسه يلتصق بركبتيه ثم دس ذراعه فى الفراغ الذى بين قضبان السياج واخذ يحشره حشرا ويحركه محاولا ان يلمس القفل باصابعه ولكن الامر استحال عليه . وكان لابد له ان يتخذ وضعا اخر يثنى جسمه فيه بطريقة اشد واقسى حتى يمد ذراعه من بين فراغ قضيبين قريبين من القفل .

وهبط لوبين السلم مرة أخرى .. وعند ذلك فكر فى الحروف والكلمات التى راها منقوشة على جدران الكهف كانت هناك شتائم منقوشة على الصخر مولجهة الى بيكلى .. فلا شك ان كاتبيها بعض الذين زجوا فى هذه الزنزانة ترقبا لساعة الموت .. ولكن كيف نقشوا هذه الكلمات على

الجدار الصخرى ؟ باظافرهم .. ان هذا مستحيل اذن فلابد ان هناك قطعة من الحديد أو مسمارا اتخذوه فى نقش هذه العبارات ، فاين هو ذلك المسمار ؟ لو انه عثر عليه لهان تحطيم القفل .

وعول لوبين على البحث عن هذا المسمار .

اخذ يفتش فى اركان الكهف على مهل وفى دقة . ثم شرع يبحث فى الارضية ويجوس باصابعه خلال الماء الذى يغطيها وبين الاعشاب النامية هناك دون ان يجد اثرا لضالته المنشودة .

وسمع وقع اقدام تقترب فكف عن البحث وسكن مكانه وبعد برهة ظهر بيكلى يحمل صحاف الطعام فوضعها عند فوهة الكهف وقال :

ـ هذا هو العشاء ..

واجفل لوبين اذ سمع هذه الكلمة .. العشاء .. امضت الساعات بمثل هذه السرعة ودون ان يشعر بالوقت . بل دون ان يشعر بالجوع ايضا .

وعاد بيكلى يقول :

ـ الا تريد ان تتناول الطعام .. انظر .. لقد اتيتك بقطعة من اللحم المشوى .. الا تشم رائحتها الذكية .. ومعها كمية كبيرة من البطاطس المحمرة .. وقدح من البيرة .

وجعل بيكلى يمصمص شفتيه .. وكان يرمى بذلك الى تعذيب لوبين واثارة رغبته حتى يحمله على الافضاء مخبأ المفتاح اذا ما اغراه بالطعام .

ولكنه لزم الصمت لا يجيب فقال بيكلى :

- اذن فانت مضرب عن الكلام . ! فليكن .. ساترك الطعام عند باب الزنزانة بحيث تستطيع ان تراه اذا ارتقيت بضع درجات . وسالقاك مرة اخرى فى الصباح وارجو اذا ذاك ان تكون قد عدلت عن صمتك وقررت ان تتكلم .

وغادر بيكلى الكهف .

وعاود لوبين ابحاثه من جديد .. ولكنها لم تسفر عن شىء . فبعد ان فحص ارضية الكهف وجميع ما فى حدرانه من شقوق ادرك ان لا رجاء له فى العثور على هذا المسمار

ومع ذلك فالمسمار (أو قطعة حديد) موجود بلا نزاع والا فكيف نقشت هذه العبارات على الجدار الصخرى .

واخيرا لم يبق امام لوبين الا مكان واحد لم يبحث فيه ذلك هو السلم . اخذ لوبين يرتقى السلم درجة بعد درجة وهو يبحث فى شقوقها . وفجأة لمست اصابعه جسما صلبا داخل شق من شقوق السلم .

واخرج هذا الجسم الصلب فاذا هو مسمار .. عتيق .. مثنى .. يعلوه الصدا . ؟

الفصل الثالث عشر

طار لوبين فرحا بهذا الاكتشاف وارتقى الدرجات الباقية من السلم وما كاد رأسه يصطدم بالقضبان الحديدية حتى ثنى جسمه على وضع يمكنه من ان يصعد درجة اخرى ولكن ذراعه لم تصل الى القفل .. فثنى جسمه أشد من انثنائه الاول . واستطاع بذلك ان يصعد درجة ثانية . وحشر ذراعه بين القضبان حشرا واخذ يدير يده هنا وهناك بحثا عن القفل اذ لم يكن يراه وهو على هذا الوضع .

واخيرا لمست اصابعه القفل . واستخفه الطرب .. هناك اذن امل فى النجاة ! امل فى ان يرى العالم الاخر :. ولكن ما اشد تفاؤله هناك امل فى ان يفر من الزنزانة . اما الوصول الى العالم الاخر فذاك وهم اكثر منه حقيقة .. هب خرج من الزنزانة فكيف يمر كل هذه الميادين حتى ينتهى الى البوابة وكيف يفتحها ويفر هاربا !

واول الامر كان ذلك سهلا لان القوم كانوا يجهلون ان المفتاح قد سرق فما كان عليه الا ان يتغلب على الحارس الذى يتولى حفارة البوابة اما الامر فلا شك ان الرقابة ضوعفت عندها .

وبعد لحظات ظهر بيكلى عند باب الزنزانة وقال يخاطبه :

— هذه فرصتك الاخيرة .. اتنوى ان تتكلم ام تؤثر ان افرغ رصاص مسدسى فى قلبك !

فقال لوبين :

— وهبنى ارشدتك الى المفتاح فماذا يكون من امرى ؟

— ساقدم اليك الطعام والماء ..

— وبعد ذلك تفرغ مسدسك فى قلبى ؟ احسبتنى مجنونا انى اعلم انك لن تقتلنى ما دامت البوابة مغلقة .. ولكنك لن تتردد فى قتلى فى اللحظة التى ارشدك فيها الى المفتاح أو فى اللحظة التى تصنعون فيها مفتاحا جديدا .

— اذن فلنعقدها صفقة رابحة لك ولى .. اذا ارشدتنى الى المفتاح ابقيت على حياتك وسمحت لك بان تعيش فى الكهف كغيرك من رجال العصبة السرية .

— وما الذى يضمن لى انك ستبر بهذا الوعد ؟

— ساقسم على ذلك بشرفى .

— شرفك .. شرف قاتل سفاك ؟

وما نطق لوبين بهذه الكلمات حتى هاجت ثائرة بيكلى وصاح :

— قاتل سفاك .. والله انى لا اكون مغفلا لو انى ابقيت عليك ساعة واحدة .. لابد ان اقتلك الان .. على الفور

وصوب مسدسه الى لوبين .

وادرك لوبين انه اخطأ .. وان عليه الان ان يجد مخرجا من هذه الورطة قبل ان يطلق بيكلى النار فاسرع يقول :

— سيكون مركزك حرجا يا بيكلى اذا طلب مجلس الادارة فتح البوابة غدا مثلا !

واصاب لوبين فى قوله هذا ، اذ ما سمع بيكلى هذه الكلمات حتى هدأت ثورته وذكر الورطة التى وقعه فيها ضياع المفتاح وقال :

— هذا صحيح .. ولست اريد ان اطلعهم على ما حدث

وساد الصمت برهة ثم قال بيكلى فجأة وقد ابرقت عيناه ببريق الشر :

— فليكن ! لن اقتلك .. سابقيك حيا الى الغد ، ولكنى ساعرف كيف ارغمك على الكلام .. ساشوى قدميك بالنار شيا وساقطع اصابعك واذانك .. ولكنى سامهلك الى مثل هذه الساعة من الغد ، وعند ذلك ستتمنى لو اننى قتلتك !

لم يكد بيكلى يبتعد حتى ارتقى لوبين الدرج ثانية وثنى جسمه على نفس الوضع السابق ، ومضى يعالج القفل ، وادرك ان سن المسمار سميك لا يغوص فى ثقب القفل الا قليلا ، فيغادر مكانه ومضى يحك المسمار على الجدار الصخرى حتى انبرى طرفه الى الحد المطلوب ، ثم ارتد الى الدرج من جديد ومضى يعالج القفل .

ولم تكن المهمة هينة وهو لا يرى القفل فى هذا الوضع ولا يحسن امساكه ، ولكنه اثبر على العمل على الرغم من

تتابع الساعات وعلى رغم الالام التى كان يحسها وظهره مثنى على هذا الشكل .

وكانت دقائق الراحة القليلة التى يصيبها تنفس عنه بعض اوجاعه ، ولكنه لم يكن يسمح لنفسه براحة طويلة خشية ان يفوت الوقت .

واخيرا سمع تكة .. وقرف ان لسان القفل قد تحرك لقد انفتح باب الزنزانة .. باب الحرية !

وفى هذه اللحظة سمع لوبين وقع اقدام تقترب من الكهف !

الفصل الرابع عشر

يا لله ! اهكذا تقع النكبة فى وقت الظفر والانتصار ! اى اللحظه التى يفتح فيها القفل يفاجئه بيكلى وحراسه وما العمل الان ؟ لو انه ترك القفل مفتوحا لفطنوا الى الامر ولا فاموا عند الزنزانة حارسا يخفرها باستمرار ! لم يكن هناك اذن الا حل واحد : هو ان يغلق القفل كما كان .

وفى حسر والم مد لوبين اصابعه ورد لسان القفل مكانه وهبط الى قاع الزنزانة .

واقترب وقع الاقدام وسمع لوبين صوت الحارس يقول :

— هذا صديق جاء يؤنس وحدتك !

وفتح الباب ، ورأى لوبين أمامه صديقه جيم ميلر . !

وقال لوبين يخاطب جيم وقد انصرف الحارس :

— انى اسف يا جيم ! اسف جدا ولكن كيف كشفوا امرك ! الم تقص عليهم الحكاية التى لفقتها لك تأهبا لمثل هذا الموقف ؟

فابتسم جيم ابتسامة مزيفة وقال :

— ان امرى لا يحزننى .. ولكنى افكر فى سالى وجراسى اقضى عليهما بالبقاء فى هذه الكهوف مدى الحياة ؟

فقال لوبين مغيرا مجرى الحديث:

— ولكن ما الذى جرى ؟

— لقد اردت ان اعمل على مساعدتك فانكشف امرى .

— الم اقل لك ان لا تكترث لما يصيبنى ؟

— لم يكن الاعضاء فى وسعى !

— ولكنى لست بالرجل العاجز .. لقد استطعت ان افتح قفل الزنزانة قبيل قدومك الان بدقائق فلما سمعت وقع الاقدام اضطررت الى ايصاده ثانية وضحيت بثمرة عمل بضع ساعات ولكن نبئنى بما حدث !

— رايتك وانت تساق الى السجن .. ورايت حزام ادواتك على مكتب الرئيس على اثر انصرافه فاردت ان اسرقه لكى اتيك به اذ كنت موقنا انك تستطيع بواسطة هذه الادوات ان تفتح الزنزانة مادمت قد استطعت اغتصاب باب الخزانة وفى هذه اللحظة فتح الباب ودخل الرئيس .. فاستولى على الارتباك وفطن هو الى الامر ولما لم يجد حزام الادوات على مكتبه تبينت له الحقيقة وامر بالتحقيق فشهد بعض الحراس بانهم راونا معا نتريض فى الكهوف فى اليوم السابق .. وقد سألنى الرئيس عما اذا كنت اعلم مخبأ المفتاح فاجبته بالنفى وكانت هذه هى الحقيقة لانك لم تنبئنى بالمكان الذى اخفيته فيه .. فأمر الحراس

بتفتيش داري ولكنهم لم يعثروا فيه على المفتاح . فامرهم بزجي في الزنزانة .

فقال لوبين :

— والان علينا ان نسعى الى الفرار من هذه الزنزانة .

— وما الفائدة ما دمنا سنعجز عن مغادرة الكهف ؟

— ومن قال لك اننا سنعجز اتجيد السباحة ؟

— نعم .. ولكني لم اتدرب منذ اويت الى هذه الكهوف واخشى ان لا اتمكن من السباحة مسافة طويلة .

— حتى ولو كان ذلك سعيا الى النجاة من الموت .

وكاشفه لوبين بخطته .. ان مجلس الادارة يرسل اليهم الخامات والاخشاب عن طريق النهر فلماذا لا يجربون هذا الطريق ويسبحون في النهر حتى ينتهوا الى مدخله الواقع خارج الكهوف !

فقال جيم معترضا :

— وما يدرينا ان الشلال يقع على بضعة اميال ؟

— فليكن لو اننا بقينا هنا لما كان هناك مفر من موتنا فلم لا نجرب هذه المحاولة .. ؟ في سبيل سالمي وجراسي يجب ان نقدم .

— وهل نتركهم خلفنا ؟

— اذا عدنا الى الدنيا للاخرى بحثنا عن المنفذ السري الذي هويت منه الى الكهف واتخذناه سبيلا اليه مرة اخرى لانقاذ زوجتك والطفلة .

فتنهد جيم وقال :

— يا لوبين .. ان لك قوة فذة على تبديد الظلمات واشاعة الرجاء في القلوب .. اني معك الى النهاية .

— شكرا . والان علينا ان نتعاون في فتح باب الزنزانة لقد فتحتها وحدي ولكن الامر استغرق مني وقتا طويلا .

وصعد الاثنان السلم معا فامسك جيم بالقفل على حين دس لوبين المسمار في الثقب واخذ يعالجه وكلما ادركهما التعب استراحا .

واخيرا .. بعد ساعة كاملة ، انفتح القفل ، وخرج الرجال من الزنزانة .

جلس الرجلان عند باب الزنزانة واقبل لوبين على الطعام الذي كان بيكلي قد تركه هناك فالتهمة على عجل وابى جيم ان يشاطره اياه اذ تناول طعامه قبل ذلك بقليل

واخيرا نهضا وخرجا من الكهف فسارا على ضفة النهر المجاور للزنزانة تحجبهما الواح الخشب المصفوفة هناك عن اعين الحراس .

واشار لوبين الى صاحبه بان يزحف على الارض زحفا ثم همس في اذنه وقد الصق اليها فمه :

— اخلع ثيابك كلها حتى لا تعوقنا .

وتجرد الرجلان من ثيابهما ووضعاها في احد الاركان . وحفا على الارض حتى بلغا الضفة .

— ليت شعري الى اية مسافة يمتد النهر في باطن الارض اني اسائل نفسي متى .

— متى يدركنا التعب فنموت غرقا ؟

— نعم ..

— لن نموت غرقا .. سنصل الى الشلال حتما .

— انى اريد منك يا لوبين ان تزجى الى وعدا .

— ما هو ؟

— اذا ادركنى التعب اثناء الرحلة فلا تحاول ان تساعدنى واصل سيرك دون ان تكترث بامرى .

فابتسم لوبين وقال :

— اخطر لك ان فى وسعى ان اعدك بشىء من هذا القبيل ؟

— من اجل سالى وجراسى ارجوك ان تعدنى . اذا اقبلت تساعدنى متنا معا .. وبالتالى بقيت سالى وجراسى فى الكهف مدى الحياة . اما اذا نجوت انت فقد تستطيع ان تنقذهما ومن أجل هذا ارجوك ان تعدنى بما اريد !

فقال لوبين :

مادمت تنظر الى الامر من هذه الناحية فلا مفر لى من ان اعدك بهذا .. والان هيا بنا الى الماء ، واياك ان تحدث صوتا ينبه الحراس .

وفى حذر ادلى الرجلان جسميهما فى الماء تدريجيا .

وكان الماء باردا جدا ، ولكنهما احتملا برودته فى سبيل الحياة .

وبعد لحظات ابتلعهما سرداب النهر الممتد فى باطن الارض وتواريا فى ظلامه الدامس .

الفصل الخامس عشر

مضى الرجلان يسبحان فى النهر .. وكان الظلام دامسا لا يتبين المرء فيه طرف انفه .. ظلام طبقات فوق طبقات .. وهما يشقان طريقهما فى الماء البارد . صوب الحرية !

وقال جيم : — الظلام مخيف !

فقال لوبين : — تشجع !

— يخيل الى ان اعصابى وشيكة بان تنهدم .

— من اجل سالى وجراسى ينبغى ان تحتمل وتصبر ..

وظلا يسبحان الى ان ادركهما التعب ، فاستندا الى جدار سرداب النهر وتعلقا بنتوء فيه ولبثا برهة ساكنين .

ولما اصابا من الراحة ما فيه الكفاية واصلا السباحة .

وفجأة شعر بشىء يثقل رؤوسهما ويدفعهما الى اسفل النهر وهما يجادلان فى سبيل النجاة دون ان يقويا على الوصول الى سطح الماء .. وبعد لحظات انزاح هذا الثقل فطفوا ثانية الى السطح ، وصاح لوبين بصاحبه :

— جيم ؟ هل انت بخير ؟

— نعم .. لقد كدت اموت .. ولكن ما هذا !

— انه غرارة جلدية ملاى بالخامات والبضائع من تلك الغرارات التى يرسلها مجلس الادارة الى الكهف عن طريق النهر .. لقد صدمتنا ودفعتنا الى الاسفل لان السرداب لا يتسع لنا ولها .

فتنفس جيم الصعداء وقال :

— لقد ظننت وانا فى هذه الظلمة الرهيبة ان شيطانا ركب كتفى واراد ان يغرقنى .

وظلا يسبحان .. ويستريحان .. ويسبحان . ويستريحان .. والنفق ممتد امامهما برهبته .. وظلامه . ووحشته !

وفطن لوبين الى ان ضربات جيم قد ضعفت فقال يبث الشجاعة فى نفسه :

— تشجع يا بنى .. ففى سبيل سالى وجراسى ينبغى ان ننجو .. ينبغى ان نصل الى الشلال .

ولم يجب جيم على هذه الكلمات المشجعة .. ولكنه بعد قليل قال فى صوت يائس :

— لوبين .. امض انت فى طريقك ودعنى .. فليس فى وسعى ان اواصل السباحة .

— تجلد .. انى قادم اليك على الفور .

وضرب لوبين فى الماء متجها صوب جيم اذا لمسه امسك بذراعه وقاده الى الجدار ودعاه الى ان يصيب راحة جديدة .

وقال جيم :

— دعنى انت وامض فى طريقك .

— محال .. لابد ان تنجو معى .

وفجاة شعر لوبين بشىء يصدم صدره فقال جيم :

— ما هذا .. غرارة اخرى ؟

— كلا .. بل لوح من الخشب .. من تلك الالواح التى تصل الى النهر عن طريق الكهف .

وامسك لوبين باللوح الخشبى وهو يقول :

— سيكون هذا اللوح مطيتنا الى الشلال .. علينا ان نرقد فوقه ونجذف باذرعنا .. وبذلك لا ترهقنا السباحة .

ورقد الرجلان فوق اللوح الخشبى وطفقا يجدفان بايديهما .

وطفا بهما اللوح . وبلغ اخيرا مكانا ضحلا من النهر لمسا فيه الارض باقدامهما فسارا فى الماء سيرا .

وكان الظلام لا يزال على اشتداده ورهبته .. والامل هو الشىء الوحيد الذى كان يعمر قلبهما بالنور والضوء .

وطالت سباحتهما وامتدت بضع ساعات واخيرا سمعا دويا .. دى الشلاى .. الذى يقع عند مدخل النهر .

وضاعفا من سرعتهما ونشاطهما .. واشتد التيار .

وفجاة لاح لهما ضوء النهار .. لاح الضوء منبعثا من مدخل النهر .

٦٦ وصاح جيم :

— ضوء النهار .. النور .. الشمس .

فهتف به لوبين وهو يخشى ان تصيب المسكين لوثة من الجنون :

— صبرا يا بنى ! لا تنس ان المهمة لازالت شاقة لا تندفع مع الرجاء ولا من اليأس ! قد يستحيل علينا الخروج من الشلال ! ولا تحدق فى الضوء والا اذيت عينيك .

وانتهيا اخيرا الى الشلال .

كانت الصخور شاهقة عالية متسامية فى الهواء والميـاه

تنحدر عليها فى قوة واندفاع .

وارسل جيم صره الى الصخور وقال :

— ويلاه ! كيف السبيل الى ارتقاء هذه الصخور .. انها ملساء أقضى علينا بأن نبقى فى الكهف الى الابد .. اتضيع رحلتنا الى الشلال هباء منثورا .

فقال لوبين :

— صبرا .. دع الامر لى اتصرف فيه كما اشاء .

وفكر لوبين برهة ثم قال :

— اصغ الى ان الصخور عالية وملساء والسبيل الوحيد فى رايى استعمال هذا اللوح لبلوغ احدى الصخور والوثوب منها الى الصخرة التالية وهكذا . والآن اسند اللوح بينما أحاول أن أزحف عليه الى الصخرة فاذا بلغتها زحفت انت بدورك .

واسند لوبين طرف اللوح الى صخرة عالية على حين أمسك جيم بطرفه الاسفل حتى لا ينزلق .. وضم لوبين ساقيه وقدميه على اللوح وأخذ يزحف فى بطء وصعوبة ولكنه استطاع فى النهاية أن يبلغ طرف الصخرة ثم قال مخاطبا جيم :

— والآن حل دورك يا صاح . سأمسك انا بطرف اللوح الاعلى بينما تزحف انت .

وحاول جيم أن يفعل كما فعل لوبين ولكن الامر اعياه كان منهوك القوى لا يستطيع ان يزحف على اللوح لم يكن فى وسعه انن يحمل جسده .

قال جيم :

— وما العمل الآن .. ليس فى امكانى أن أزحف ..

— الا يمكنك على الاقل أن تتعلق باللوح ؟

— اظن ان ذلك فى وسعى .

— حسنا .. تعلق انت باللوح . وسأحاول أنا ان أجذبك الى الاعلى مع اللوح .

وكان لوبين بدوره منهوك القوى بسبب هذه السباحة الطويلة ولكنه لم يتردد فى ان يبذل آخر ما يسعه الجهد .. اخذ يجذب اللوح الى الاعلى وجيم متعلق به .. رويدا .. رويدا .. حتى تم له النجاح فاذا بالرجلان فوق الصخرة وبنفس الطريقة انتقلا الى صخرة أخرى .. ثى الى صخرة ثالثة .. ورابعة .

وقال لوبين :

والآن .. لم تبق أمامنا الا صخرة واحدة للوصول الى سطح الارض .

— ولكن كيف نخرج ونحن مجردان من الثياب .

— هذا ما افكر فيه .. نعم لابد لنا من ثياب .

وبعد برهة قال لوبين :

— اظن انه لا مفر لنا من البقاء هنا حتى يسدل الليل استاره وعند ذلك ساخرج وحدى واحاول أن نسرق نيابا نرتديها .

وظلا جالسين على الصخور ثلاث ساعات وهما يتبادلان الحديث . وكان البرد قارسا تكاد تتجمد له الاعضاء .

وأخيرا قال لوبين :

— اظن ان ساعة العمل قد حانت .

وخرج من بين الصخور متسترا بالليل .

وبعد ساعة رجع الى صاحبه يحمل بذلتين .

وقال جيم :

— من أين اتيت بهما ؟

فضحك لوبين وقال :

— اقتربت من نافذة أحد البيوت فرايت امراة تعد بذلتى السهرة لزوجها وابنها فيما اعتقد وقد وضعتهما على حافة الفراش فما كان منى الا ان تخطيت سياج النافذة ووقفت على مقربة منها دون ان تشعر بى وسعلت وادارت المراة راسها فرات امامها رجلا عاريا مجردا عن الثياب فصرخت فزعة ووضعت يديها على وجهها حياء .. فاغتنمت الفرصة وسرقت البذلتين وفررت هاربا .

الفصل السادس عشر

قال لوبين يخاطب جيم :

— والآن هيا بنا نعود الى لندن فانى فى حاجة الى تناول الطعام والراحة .. وفى حاجة ايضا الى بعض الادوات .

— ولكن كيف تذهب ؟ سيرا على الاقدام .

— كلا .. لقد سرقت من المراة كيس نقودها ايضا !

— اوه .. انك لا تغفل عن شىء يا لوبين .

فضحك لوبين وقال :

— لو اننى كنت ممن يغفلون عن شىء ما كنت خليقا بان ادعى ارسين لوبين .

وبعد ساعة كانا الرجلان فى بيت لوبين القائم فى احدى ضواحى لندن . فتناولا طعاما شهيا وناما نحو ساعتين ثم ايقظهما الخادم .

وارتدى لوبين قميصا اسود اخفاه بوشاح ابيض لفه حول عنقه . وحذا جيم حذوه وقال :

— هل حانت ساعة العمل !

— نعم ..!

— ولكن ما الذى تنويه !

— سنمضى الآن الى قصر هايفيلد معا وساحاول ان ابحث عن ذلك المنقذ السرى الذى هويت منه الى كهف العصبة السرية .

وعندما أرسلت الساعة دقاتها الاثنتى عشرة كان لوبين وجيم يتسللان الى قصر هايفيلد .

واقتربا من غرفة يشع النور من تحت عقبها وقال اوبين همسا وقد ألصق فمه باذن صاحبه :

— هذه غرفة الحارس الذى يتولى خفارة القصر .. ان للغرفة بابين فتقر أنت على هذا الباب فاذا استراب ونهض ينظر من الطارق فاجأته أنا من الخلف .

وسار لوبين الى الباب الثانى وادار المقبض فى حذر .. ونقر جيم على الباب الاول .

وفزع الحارس حين سمع النقر .. وجعل يحملق ناحية الباب مذهولا .. ثم نهض وسار على أطراف اصابعه متجها الى الباب ولكنه لم يبلغه اذ فاجأة لوبين من الخلف وضربه على رأسه بهراوة من الخشب صرعته ارضا .

والتفت لوبين الى جيم قائلا :

— والآن يجب ان نبحث عن المفذ السرى .. لقد دخلت القصر من هذه النافذة .. ووقفت فى هذه الغرفة .. ثم سرت فى هذا الدهليز وبعد ذلك دخلت هذه القاعة لكى اسرق الدمية اليابانية ولما غادرتها سرت فى الدهليز ثانية .. وانتهيت الى هذا البهو .. وفى هذا المكان بالضبط اصطدمت بقريمى .

وسكت لوبين فقال جيم :

— وبعد ذلك ؟

— الحق انى لا ادرى ما الذى حدث بعد ذلك ؟ كان الصراع عنيفا بينى وبين خصمى فدرت فى المكان كثير ولست ادرى اى اتجاه اخذت .. ولكن مما لا شك فيه انى اصطدمت بالجدران والرأى عندى أن نفحص هذه الجدران .

واخذ الرجلان يدقان على الجدران فوجداها صماء خالية من التجويف الداخلى .

فقال لوبين :

— عجبا . انى واثق من ان المعركة دارت فى هذا البهو !

وارسل بصره الى دولاب صغير قائم فى ركن البهو وقال :

— وهذا الدولاب .. ان من المحتمل جدا أن اكون قد اصطدمت بالدلاوب فتزحزح من مكانه .. وربما كان المنفذ السرى خلفه .

وازاح الدولاب من وضعه ونقر على الجدار !

وهتف يقول :

— لقد اكتشفت المنفذ .

وظل لوبين يفحص الجدار برهة فلم يجد فيه زرا يفتح به فقال :

عجبا كيف ينشق الجدار اذن ؟

ثم اردف هاتفا :

— ياللغباوة .. حين اصطدمت بالجدار انشق من تلقاء نفسه دون ان أحرك فيه أى زر . اذن فهو يتحرك بالضغط .

ووضع لوبين يده على الجدران وضغط بكل قوته فاذا به ينزلق الى الخلف وينكشف عن فجوة فى صدرها سلم حجرى ينحدر الى الاسفل .

وقال لوبين : — ابق أنت هنا بينما سأدخل أنا لارى كيف يفتح المنفذ من الداخل .

وارسل لوبين بصره فى ارجاء السرادب فالفى أن خلف الباب زنبركا يكفى ان يجذب الى الداخل أو يضغط من الخارج حتى ينفتح الباب . ففتحه ودعا جيم الى اللحاق به وهو يقول :

— عندما اصطدمت بالدولاب انزلق من مكانه فاصطدمت بالجدار فانفتح الباب السرى ولا شك انى تدحرجت على هذه الدرجات ؟ حتى انتهيت الى القاع . فهل فى القاع باب يفضى الى الكهف ؟

وصح رأى لوبين .. فعند اسفل الدرج كان هناك باب سرى منحوت فى الارضية .. وكان الباب عبارة عن قطعة من الصخر تتصل به سلسلة ضخمة من الحديد فى نهايتها حجر هائل يوازن الباب الصخرى .

وقال لوبين :

- الآن وضح الامر .. انظر .. هـذا الباب مقفل بهذه الصخرة فاذا داس المرء على الباب هوى الى الاسفل وانفتح فاذا نزل المرء الى الكهف ارتد الباب الى موضعه لان ثقل الصخرة المشـــدودة الى السلسلة انما جعـــل للموازنة والترجيح والآن عليك ان تقف على الصـــخرة بينما اوقف أنا على الباب لانى لا أريد أن أنزل الى الكهف الا بعـــد ان استوثق من ان الميدان خال من الحراس .

ووقف لوبين على الباب السرى على حين وقف جيم على الصخرة المشدودة الى السلسلة .

وقال لوبين :

- والآن خفف ثقلك عن الصخرة قليلا حتى يفتح الباب رويدا رويدا .

وانفتح الباب فرجة صـــغيرة وبدت أنوار الكهف .

وأرهف لوبين أذنيه للسمع فلم ير به شيء فقال :

- الآن سأهبط الى الداخل .

وثب الى أرض الكهف .

وسار لوبين مسرعا الى بيت ميلر الواقع على قيـــد عشرين ياردة فنقر على الباب نقرا خفيفا .

وفتحت مسز ميلر الباب وحين رأته هتفت تقول :

- أنت .. أنت .

- اسرعى .. أين جراسى .. الفرار اسرعى .

« تمت »